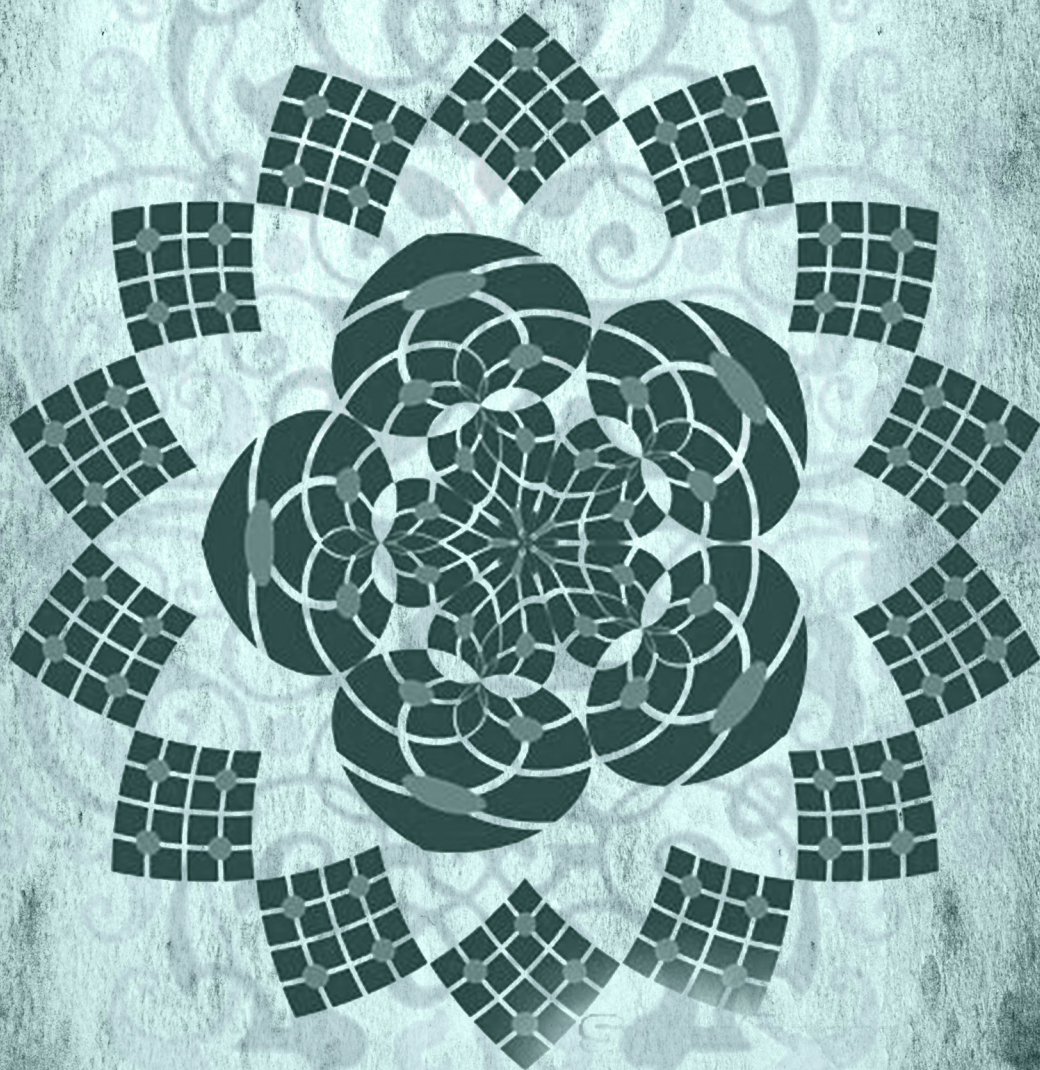


تأصيل العلاقة مع غير المسلمين

من خلال أحداث

السيرة النبوية



حميد الصغير

الألوكة

www.alukah.net

تأصيل العلاقة مع غير المسلمين من خلال أحداث السيرة النبوية

تقديم:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد أنزل الله دين الإسلام رحمة للعالمين، وجاء خطابا لكل الناس يدعوهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، في الدنيا والآخرة، فأمن به من آمن، وكفر به من كفر، وبذلك انقسم الناس نحو الإسلام إلى قسمين: -قسم رضي بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً. وقسم اتخذ لنفسه ديناً آخر، أو اختار ألا يكون له دين أصلاً.

وإذا كان المسلمون قد اختاروا الإسلام فقد اهتموا إلى الحق، ولكن يبقى الآخرون من غيرهم، دوماً، مادة لدعوتهم إلى هذا الحق. فالصلة بهم هي: صلة "الأخوة الإنسانية" ^١، وصلة التأزر، والتعاون على ما فيه الخير والنفع العام، وليست بحال صلة عداوة، إلا من سلك منهم مسلك الاعتداء لذلك جاءت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم تحدد طرق التعامل مع غير المسلمين، حيث شرع عليه السلام أحكاماً تنبئ على المشترك بين الإنسان، وتقوم في مجملها على السلم والتعارف والتعاون. فإذا ما كان الاعتداء، أصبحت العلاقة: علاقة حرب، فإن أحكاماً أخرى، تضبط أيضاً، هذا الوضع، ولا تتركه مرسلًا بلا قيود ولا ضوابط.

ولكن التاريخ الإنساني قديمه وحديثه، نشبت فيه بين المسلمين وغيرهم ملابسات كثيرة، جرى فيها الواقع أحيانا بما لا يتماشى مع أحكام الشريعة الإسلامية السمحة، وتعاليم الرحمة المهداة محمد صلى الله عليه وسلم. وقد تكون تلك الملابسات انتقلت أحيانا مما جرى به الواقع إلى ذات الأحكام، فيما جرى به تقريرها من قبل بعض الفقهاء المتعاطين للشأن الشرعي. فحدث بعض الخلط واللبس اللذان يجافيان الحقيقة الشرعية.

إننا نشهد اليوم خلطاً كبيراً في علاقة المسلمين بغيرهم، وهو خلط يتطرف أحيانا ذات اليمين، فيذهب من ينتمي إلى ذلك، إلى: إزالة الفوارق، وطمس الهوية، والاستغناء عن الفروق الجوهرية، ليكون الناس جميعاً متساوين في الانتماء الذي قد يسمى "بالديانة الإنسانية" ^٢ ويتطرف -الموقف من غير المسلمين- أحيانا أخرى، ذات الشمال، فيذهب من يتصور ذلك، إلى: الوقوف موقف العداوة الأبدي والمبدئي من غير المسلمين: معتدين كانوا

١ - يؤصل القرضاوي لهذا المصطلح ومصطلح "الأخوة الوطنية" في كتابه: "الوطن والمواطنة في ضوء الأصول العقديّة والمقاصد الشرعية" ص: ٤٢ و ٤٣، وانظر: فكرة المواطنة في كتاب "المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية" لطارق البشري ص: ٥٤ وما بعدها.

٢ - أصبح هذا المصطلح يؤسس لتيار فكري إلحادي، يلغي جميع الأديان، والفوارق الجوهرية بين الإنسانية ويحتفظ فقط "بالإنسان" ككائن جوهري وأسطوري خلقتة الطبيعة.

أم غير معتدين، مسلمين كانوا أم محاربين. ويتمثل كل من هذا، وذاك، في مواقف وتصرفات توجهها قناعات وتصورات بعيدة كل البعد عن حقيقة الدين وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذه التصورات متأتية من فهم خاطئ لسيرورة العلاقة بين المسلم وغيره - كما شرعها الله عز وجل وطبقها رسوله صلى الله عليه وسلم - أو جاءت كرد فعل عن مواقف وتصرفات عدائية لغير المسلمين نحو المسلمين. ومن هنا يلحق ضرر كبير بالإسلام والمسلمين خاصة، وبالعلاقات الإنسانية عامة. وهو الأمر الذي يستدعي تصحيحها، يعود بهذه المعادلة إلى وضعها الشرعي الطبيعي، والأصيل، كما عاشه وقرره الرسول عليه السلام والمسلمين معه، من بداية الدعوة إلى منتهاها.

وفي هذا السياق يأتي هذا البحث المتواضع تحت عنوان: "تأصيل العلاقة مع غير المسلمين من خلال أحداث السيرة النبوية: دراسة تطبيقية". يعالج هذه القضية المهمة، من قضايا الأمة، فيما تتعرض له علاقاتها مع غير المسلمين منذ زمن من تقول واتهام، وبالأخص في عصرنا الحالي، وما يشهده من أحكام قبلية خاطئة على علاقة المسلم بغيره. والتي أصبحت تطفو على السطح، حتى من بعض الفقهاء المسلمين، الذين قرروا تقارير فقهية، جانبها الصواب في كثير من الأحيان. هذه التقارير الفقهية المغلوطة، أدت بدورها إلى مغالطات أخرى في الواقع الذي يحكم علاقة المسلمين بغيرهم. وهو الأمر الذي يستدعي معالجة تأصيلية شرعية، ترد الأمر إلى نصابه الصحيح، وهو الدور الذي أرجو أن يقدر لهذا البحث المتواضع.

وبما أن التعامل مع الآخر هو: علاقة تطبيقية على أرض الواقع المشترك، ارتأيت أن أضبط هذه العلاقة، بين المسلمين وغيرهم، وأجلي معالمها، من خلال أحداث السيرة النبوية العطرة، والتي هي الأساس، قامت على ترجمة هذه العلاقة على أرض الواقع، ونزلت بها من مستوى التنظير المثالي إلى التطبيق العملي والواقعي. كما أن أحداث السيرة النبوية انبسطت لتشمل جميع المراحل والأطوار لهذه العلاقة، فشملت علاقة المسلمين بغيرهم في حالة الضعف والقوة، والسلم والحرب، والهدنة والصلح.

إن السيرة الواقعية للرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه، حفظت - وبصدق - معالم تلك العلاقة المتميزة للمسلمين بغيرهم، لما تمتع به غير المسلمين من حقوق، وهم يعيشون في المجتمع الإسلامي، تحت قيادة الرسول عليه السلام، وفي ظل تطبيق أحكام الإسلام السمحة.

إن العلاقة بين المسلمين وغيرهم اليوم، وما يصدر عن بعض المسلمين من أقوال وأفعال وسلوكات، نحو الآخرين، تعطي صورة غير حضارية وغير مقبولة عن الإسلام، وقد شاب هذه العلاقة في القرون الأخيرة، الكثير من التنظير والتأصيل، الذي ينجح إما إلى الإفراط أو التفريط، واختلطت في هذه العلاقة الثوابت والمتغيرات، وتداخلت الأصول في الفروع والنصوص الشرعية في الأعراف والتقاليد. لذلك أرى من الضروري تنقية هذه العلاقة من الشوائب التي علقت بها، حتى تظهر في أحسن صورة وأنصعها، من خلال الرجوع بها، إلى الواقع وسوف أتناول هذا الموضوع وفق المنهج التالي:

الفصل الأول: معالم العلاقة مع غير المسلمين في حالي الضعف والخوف [المرحلة المكية نموذجاً]

المبحث الأول: الاشتغال بسرية الدعوة، مع التركيز على بناء العقيدة

المبحث الثاني: الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله، مع الإعراض عن المشركين

المبحث الثالث: رفض الإغراءات والمساومات على حساب العقيدة

المبحث الرابع: المقاومة السلمية للمسلمين والدفاع عن النفس عند الضرورة القصوى

المبحث الخامس: الاستفادة من قوانين المجتمع الكافر: [مثلاً قوانين: الحماية، والحوار، والتعصب

للقبيلة]

المبحث السادس: الاستفادة من العناصر المشتركة بين الإسلام والعقائد الأخرى

الفصل الثاني: العلاقة مع غير المسلمين في حالي القوة والتمكين [المرحلة المدنية نموذجاً]

المبحث الأول: علاقة المسلمين باليهود: نشأتها وتطورها

المطلب الأول: مرحلة الهدنة المشوبة بالحذر

المطلب الثاني: مرحلة الحرب المعنوية والنفسية التي شنها اليهود على الإسلام والمسلمين

المطلب الثالث: الصراع المسلح والقضاء على الوجود اليهودي في المدينة

ونواحيها

المبحث الثاني: علاقة المسلمين بالنصارى

المطلب الأول: نشأة هذه العلاقة

المطلب الثاني: مميزات العلاقة بالنصارى في مكة والمدينة

المطلب الثالث: الصراع المسلح ضد النصارى

الفصل الثالث: نماذج من علاقة المسلمين بغير المسلمين في السيرة النبوية:

المبحث الأول: علاقة المسلمين مع أهل الذمة

المطلب الأول: تعريف الذمة لغة واصطلاحاً

المطلب الثاني: مشروعية عقد الذمة والحكمة منه

المطلب الثالث: نماذج تطبيقية لعقد الذمة في السيرة النبوية

المبحث الثاني: علاقة المسلمين بأهل العهد _____

المطلب الأول: تعريف العهد لغة واصطلاحاً _____

المطلب الثاني: مشروعية عقد العهد مع غير المسلمين _____

المطلب الثالث: نماذج تطبيقية لعقد العهد في السيرة النبوية _____

المبحث الثالث: علاقة المسلمين بالمستأمنين _____

المطلب الأول: تعريف الأمان لغة واصطلاحاً _____

المطلب الثاني: مشروعية عقد الأمان وأنواعه وأقسام المستأمنين _____

المطلب الثالث: نماذج تطبيقية لعقد الأمان مع غير المسلمين في السيرة النبوية _____

المبحث الرابع: علاقة المسلمين بأهل الحياض _____

المطلب الأول: تعريف الحياض لغة واصطلاحاً _____

المطلب الثاني: مشروعية الحياض وأنواعه _____

المطلب الثالث: نماذج تطبيقية للعلاقة مع أهل الحياض في السيرة النبوية.

* خاتمة _____

لائحة المصادر والمراجع.

تقديم:

لا شك أن أسلوب تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم مع غير المسلمين، ومن خلال أحداث ووقائع السيرة النبوية، يعتبر نموذجاً يحتذى، ومثالا ينبغي الاقتداء به، والسير على منهاجه. كما يجب أن يكون هذا الأسلوب النبوي الرفيع هو: المرجعية الدينية، لكل من يتصدى للحوار أو الفتوى أو التنظير. لأن المنهج النبوي في معاملة غير المسلمين، بلغ غاية الكمال، بشهادتهم - هم أنفسهم - من خلال: الاعتراف بالآخر غير المسلم، واحترامه، وإقرار حقوقه، وصيانتها. كما يعتبر تعامله عليه السلام معهم، تطبيقاً عملياً لكل ما نزل به الوحي لتنظيم هذه العلاقة وشرعنتها.

وتعتبر علاقة المسلم بالآخر، قضية شائكة أسالت الكثير من المداد عبر التاريخ، وقد اشتدت الحاجة اليوم، إلى تجلية هذه القضية أكثر من أي وقت مضى، لكثرة ما أثير حولها من شبهات، وأباطيل، روجها أعداء الإسلام ومنها: رمي المسلمين بالتعصب المقيت، وكرهية الآخر، واحتقاره، والدعوة إلى إقصائه وإلغائه... وما أكثر ما تقولوا به على الإسلام والمسلمين من ترهات بغير حق ولا علم.

فكان لزاماً علينا، نحن معشر المسلمين، أن نبين لغيرنا المنهج النبوي في تعامله مع الآخر، كما ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطبقه في حياته العملية، بالقول أحياناً، وبالفعل أحياناً، وبالإقرار، لما وقع أمامه، أحياناً أخرى. لذا تعتبر أحداث السيرة النبوية ووقائعها، مرآة تضيء جوانب مظلمة في علاقة المسلمين بغيرهم، وتشكل نموذجاً بشرياً فريداً في قبول الآخر والتعايش معه، بل والاعتراف بحقوقه وضمان الحفاظ عليها، انطلاقاً من مبدأ المواطنة في الوطن الواحد، والأخوة الإنسانية في الأصل.

* الفصل الأول: معالم العلاقة مع غير المسلمين في حالي الضعف والخوف [المرحلة المكية نموذجاً].

إن علاقة المسلمين بغيرهم خلال المرحلة المكية، والتي سمتها بمرحلة الخوف والضعف، كانت علاقة حرب استتصالية، وعلاقة اضطهاد، وإيذاء، وتعذيب... حيث يمكن تصور هذه العلاقة على أنها، كانت من جانب واحد، قوي، امتلك القوة والسلطة والزعامة، وبذلك سلط مشركو قريش جام غضبهم، على فئة من المسلمين المستضعفين، الذين اعتنقوا الدعوة الجديدة، حيث أن كفار مكة لم يألوا جهداً، ولم يذخروا وسعاً في وأد الدعوة الوليدة، في مهدها، كما كانوا يفعلون بإنائهم في الجاهلية. ولكن بالرغم من كل ذلك، فقد استطاع الرسول عليه السلام، بصبره، وحكمته، وأناته، وبعد نظره، أن يحافظ على بيضة الإسلام سليمة، وأن يبقى على حياة السابقين، الأولين من الصحابة، وأن يؤسس نواة مجتمع مسلم، وسط بيئة تعمها الجاهلية ويلفها الظلام والظلم من جميع الجهات. وبذلك رسم عليه السلام خلال مقامه في مكة، صورة واضحة المعالم في كيفية التعامل مع غير المسلمين في حالي الضعف والخوف، حتى تكون قدوة لكل مسلم، عاش مضطهداً، خائفاً على نفسه، ودينه في

كل زمان ومكان. ويمكن أن نحدد معالم علاقة المسلمين بغيرهم خلال فترة الخوف والضعف، ومن خلال استقراء أحداث السيرة في مكة، فيما يلي:

*المبحث الأول: الاشتغال بسرية الدعوة، مع التركيز على بناء العقيدة:

اقتضت طبيعة الدعوة في بداية المرحلة المكية ان تكون سرية، فقد اتجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى دعوة ألق الناس به، ومن توسم فيهم الخير ممن يعرفهم ويعرفونه، لأن مكة كانت مركز ديانة العرب، وبها سدنة البيت الحرام، والمشركون ينحر بعضهم بعضاً، من أجل أنفه الأسباب، فما الظن بمن سيغير الدين والعقيدة؟ ويأتي بما لم يعهده الآباء والأجداد!.

لاشك أن الأمر جلل، والخطب عظيم، يحتاجان إلى عزيمة صادقة، ورغبة جامحة، وحكمة متبصرة، وعزم صادق - وكل ذلك من شيم الرسول عليه السلام - فكان صلى الله عليه وسلم يستقرئ الواقع جيداً، ثم يتصرف وفق ما يشترطه هذا الواقع. ومن هنا كانت السرية في الدعوة إلى الله، من أهم المسالك التي سلكها النبي عليه السلام في التعامل الأولي مع غير المسلمين. "فقد اجتهد عليه السلام في دعوة من يغلب على ظنه، أنه سيدخل في هذا الدين، وسوف يكتم أمره، وهذا من باب السياسة الشرعية، والنظر المصلحي للدعوة، فيجب الأسرار بالدعوة، إذا كان الجهر يضرها"^١.

وبعد مرور أيام معدودات، بلغ خبر الدعوة الجديدة إلى مسامع قريش، لكنها لم تأخذها على محمل الجد، حيث "ترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماماً، لعلها حسبت محمداً أحد أولئك الديانين، الذين يتكلمون في الألوهية، وحقوقها، كما صنع أمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة، وعمرو بن نفيل، وأشباههم، إلا أنها توجست خيفة من ذبوع خبره، وامتداد أثره، وأخذت ترقب على الأيام مصيره، ودعوته"^٢.

اقتضت طبيعة المرحلة المكية، أن تكون بداية التعامل مع غير المسلمين، على هذا النحو من السرية، والكتمان في الدعوة، واستمر هذا الأمر ثلاثة أعوام، قويت فيها شوكة المسلمين، وكثر عدد الداخلين إلى الدين الجديد، وبذلك فشا ذكر الإسلام في مكة، وتحدث الناس به، فأصبح "الدين الجديد"، الشغل الشاغل للمشركين، وحديث مجامعهم، وهم يومهم، حتى نزل قوله تعالى: { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } [الحجر: ٩٤].

وتفادياً لأية مواجهة محتملة مع كفار قريش، وحفاظاً على حياة أصحابه، كان الرسول عليه السلام يمنع الجهر بالإسلام، خلال هذه المرحلة الدقيقة، والحرجة من عمر الدعوة، ولكنه صلى الله عليه وسلم قد أذن لفئة قليلة من المسلمين، من إظهار دعوتهم، والجهر بإسلامهم أمام مشركي قريش، ما داموا في منعة من أقوامهم، ولا يستطيع أحد من المشركين أن يمد يديه إليهم بسوء. لقوة عشيرتهم، أو نفوذها. "فمن هنا تدرك أن أسلوب دعوته عليه

١ - "وقفات تربوية مع السيرة النبوية" لأحمد فريد، ص: ٦٨.

٢ - "فقه السيرة" للغزالي، ص: ٧٦.

السلام في هذه الفترة، كان من قبيل السياسة الشرعية، بوصف كونه إماماً، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى، بوصف كونه نبياً^١.

وبناء على ذلك، فإن علاقة المسلمين بغيرهم في حالة الضعف، خاضعة لشروط الواقع المعيش، وقراءة موازين القوى، وتحكيم حجم المصالح والمفاسد، والتصرف وفق ذلك كله، كما أن هذه العلاقة مرتبطة بسياسة الإمام الشرعية، ومراعاة أحوال الزمان والمكان، فلو سمح الرسول عليه السلام بالمواجهة المباشرة أو إعلان الحرب على مشركي مكة، لكان المسلمون الطرف الخاسر بكل تأكيد لكثرة الكفار وغلبيتهم. "ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة، بحيث يغلب الظن أنهم يستقيلون من غير أي نكاية في أعدائهم، إذا ما أجمعوا قتالهم، فينبغي أن تقدم هنا مصلحة النفس، لن المصلحة المقابلة هي: مصلحة حفظ الدين موهومة، أو منفية الوقوع"^٢.

فمسألة المسلمين للكفار في حالة الضعف أو الخوف، أمر لا مفر منه، لأن المواجهة لا تجدي شيئاً، ولم تتحقق أسبابها بعد، وهي في هذه الفترة مفسدة محضة لأن "الجهاد، لو وجب في الابتداء لأباد الكفرة أهل الإسلام، لقله المؤمنين، وكثرة الكافرين"^٣.

"فإذا لم تحصل النكاية [بالعدو] وجب الانهزام، لما في الثبوت من فوات النفس، مع شفاء صدور الكفار، وإرغام أهل الإسلام، وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة، ليس في طيها مصلحة"^٤ إن كتمان الدعوة، والأسرار بها، سياسة مصلحة، شرعها الرسول عليه السلام، استجابة لضرورة، فرضها الواقع، وإلا فالأصل هو بيان الدين، وتوضيحه للناس، وقد استغل الرسول صلى الله عليه وسلم مرحلة سرية الدعوة، في البناء العقدي للصحابة رضوان الله عليهم، حيث رسخ أركانها في عقولهم وقلوبهم، لأن العقيدة الصحيحة هي التي تنبثق منها العبادة الصحيحة، والسلوك القويم، والموقف السليم، فالعقيدة كانت حاضن السابقين الأولين، وملاذهم الآمن كلما اشتدت بهم المحن والشدائد، والدليل على ذلك أنه لم يرتد أحد منهم عن دينه، في مرحلة التعذيب والإيذاء، واحتدام المواجهة.

كما كان لحديث القرآن المكي، عن اليوم الآخر، والإيمان بالقضاء والقدر، وتصويره للجنة، والنار تصورياً دقيقاً، أثراً عميقاً في نفوس الصحابة، وسبباً رئيسياً في ثباتهم وصبرهم، وشدة تحملهم. وبهذا كله، "شق الرسول عليه السلام طريقه، بكل تخطيط، ودقة، وأخذ بالأسباب، مع التوكل على الله تعالى، فاهتم بالتربية العميقة، والتكوين الدقيق، والتعليم الواسع، والاحتياط الأمني، والانسحاب الطبيعي في المجتمع، والإعداد الشامل للمرحلة ما بعد

١ - "فقه السيرة" للبوطي، ص: ١٠٧.

٢ - "ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية" للبوطي، ص: ٦٩.

٣ - "قواعد الأحكام في مصالح الأنام" للعز بن عبد السلام: ٤٦/١.

٤ - نفس المصدر: ٨٨/١.

السرية، لأنه عليه السلام يعلم أن الدعوة إلى الله، لم تنزل لتكون سرية، يخاطب بها الفرد بعد الفرد، بل نزلت لتكون الحججة على العالمين، وإنقاذ من شاء الله إنقاذه من الناس" ١.

وأمام هذا الإصرار من الرسول صلى الله عليه وسلم على الدعوة، وصبر أتباعه على جنون قريش، وتحملهم جميع أصناف الإيذاء، وألوان العذاب، المعنوية والمادية، خارت قوى أهل الشرك، وفتروا حماسهم، وضعفت معنوياتهم، ووقفوا عاجزين، مدهوشين أمام صبر المسلمين، وقوة تحملهم، خاصة بعدما جربوا كل ما كان متاحا عندهم من وسائل، وإمكانات، وخطط، لو أد الدعوة الجديدة في مهدها، حتى لا يصل نورها إلى الناس خارج مكة. إن أهم ما ميز علاقة المسلمين بغيرهم خلال هذه الفترة من الدعوة يمكن إجماله فيما يلي:

أولاً: الصبر على أذى المشركين وفتنتهم:

تفنت قريش في تسليط جميع ألوان التعذيب، والتنكيل، على أجساد المسلمين، ونفسياتهم ٢ لصدهم عن الإسلام، والرجوع إلى دين الآباء والأجداد، لكن الرسول عليه السلام كان يأمرهم بالصبر، والاحتساب، ويبشروهم بالجنة، إن هم صبروا، واحتسبوا، كما كان الرسول عليه السلام يأمر أصحابه بضبط النفس، وعدم مقارعة القوة بالقوة، أو رد العدوان بعدوان مثله، حرصاً على حياتهم، وحفظاً لمستقبل الدعوة لئلا يئدها الشر، وهي لا تزال غضة طرية، ولعل المشركين كانوا يسومون المسلمين سوء العذاب، حرصاً منهم لبلوغ مواجهة مبكرة، وحاسمة مع الدعوة الإسلامية، تنهي أمرها، وتقضي على وجودها، لكن حكمة الرسول عليه السلام، وأناته، وبعد نظره، فوت على زعماء قريش ذلك الهدف المشؤوم، "فكان القرآن ينزل، لتثبيت النبي عليه السلام، وأصحابه، بتعميق المعاني الإيمانية، وغرس الصبر في نفوسهم، وتربيتهم على الأخلاق الفاضلة، وانتزاع شوائب الجاهلية، وبقاياها من سلوكهم، وعاداتهم، وأمرهم بالاستعانة بالصلاة، والصبر، وتوثيق الصلة بالله تعالى، ليزداد إيمانهم، ويقووا على مواجهة أعدائهم" ٣.

ثانياً: تجنب المواجهة مع المشركين:

لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم - في هذه الفترة - رغم ما أذاقته قريش من أصناف العذاب، المعنوي والمادي، للموحدين، وما نكلته بأجسادهم من تنكيل: أن أمر أحداً من أصحابه الكرام، برد الظلم، ومقاومة العدوان، ولم يلجأ عليه السلام إلى التعامل بالقوة، مع المشركين، لأن موازين القوة، ليست في صالح الإسلام، والمسلمين، فهم قلة، مستضعفون، لا سلاح معهم، وبذلك فالمواجهة المباشرة مع أهل الكفر، تعني الإيذان المبكر

١ - "السيرة النبوية" لعلي الصلابي: ١/١٠٢.

٢ - انظر ما سطر من العذاب على السابقين: "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ١/١٩٦ و"السيرة النبوية" لابن هشام: ١/١٨٤، و"البداية والنهاية" لابن كثير: ٤/١٠٣، و"زاد المعاد" لابن القيم: ٢/٧٩.

٣ - "عصر السيرة النبوية" لأكرم ضياء العمري، ص: ١٠٧.

بؤاد الدعوة الإسلامية الوليدة، والحكم على أتباعها بالموت، دون أية نكايه في صفوف العدو، أو تكييده خسائر جسيمة.

"وقد كان بإمكان الرسول عليه السلام، أن يفعل ذلك، بكل يسر وسهولة، إذ كان يستطيع أن يكلف أحدا من الصحابة، بقتل بعض قادة الكفر، كالوليد بن المغيرة، أو العاص بن وائل، أو أبو جهل... وهؤلاء هم أشد الناس أذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لكنه عليه السلام لم يأمر أحدا من أصحابه باغتيال أحد من المشركين، أو غيرهم من أعداء الإسلام، فإن مثل هذا الفعل، قد يؤدي بالجماعة الإسلامية كاملة، أو يعرقل مسيرتها مدة، ليست باليسيرة، كرد فعل من أعداء الإسلام، الذين يتكالبون حربه"^١.

*المبحث الثاني: رفض الإغراءات والمساومات على حساب العقيدة.

من المسالك التي اتبعها النبي صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام، في التعامل مع غير المسلمين، في هذه المرحلة: رفض المساومة على حساب الدين، والعقيدة، حيث رفض عليه السلام كافة الإغراءات، وجميع المساومات التي طرحها زعماء مكة، للكف عن الدعوة إلى الإسلام، وتبليغ الرسالة إلى الناس فحينما أدرك مشركو مكة، أن محاولاتهم في إيذاء الرسول عليه السلام، وتعذيب أصحابه، والتنكيل بهم، قد ذهبت سدى، وقفوا عاجزين، و مكتوفي الأيدي أمام ثبات الصحابة رضوان الله عليهم، وصمودهم على الحق، وهم قلة مستضعفون، لا حول لهم ولا قوة.

فالنبي عليه السلام "لم يجمع أصحابه على مغنم عاجل، أو آجل إنه أزاح الغشاوة عن الأعين، فأبصرت الحق الذي حجب عنه دهر، ومسح الران عن القلوب، فعرفت اليقين الذي فطرت عليه، وحرمتها الجاهلية منه"^٢.

جرب مشركو قريش كل الوسائل، والطرق لثني عزيمة المسلمين عن الإسلام، وارتدادهم عنه، لكن ذلك لم يزد السابقين الأولين إلا عزيمة، وتصميما، وثباتا على الإسلام، "عرف زعماء قريش ذلك جيدا، لكن ماذا سيفعلون أمام رجل صادق أمين، أعلى مثل للقيم البشرية ولمكارم الأخلاق، لم يعرفوا له نظيرا، ولا مثيلا، خلال فترة طويلة من تاريخ الآباء والأقوام؟ ماذا سيفعلون؟" تحيروا في ذلك، وحق لهم أن يتحيروا"^٣. لذلك رأى زعماء مكة أن يجربوا أساليب أخرى - غير التعذيب والإيذاء - لعلها تفتن المسلمين عن دينهم، وتثنيهم عن أهدافهم، ولعل الإغراء، والمساومة يحقق ما عجز عنه التعذيب، والتنكيل.

وبناء على هذا القرار، تكررت سياسة المساومات كثيرا مع الرسول عليه السلام لكنه ظل صامدا على موقفه و هو الرفض القاطع. وذكرت بعض كتب السيرة النبوية، أن قيادات مكة، دخلوا في مفاوضات بعد ذلك، مع رسول

١ - "الحكمة من الدعوة إلى الله" لسعيد القحطاني، ص: ١٣٣ و ١٣٤.

٢ - "فقه السيرة" للغزالي، ص: ١١٢.

٣ - "الرحيق المختوم" للمباركفوري، ص: ١١٢.

الله صلى الله عليه وسلم وعرضوا عليه إغراءات تلين أمامها القلوب البشرية، ممن أراد الدنيا وطمع في مغائرها، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ موقفا حاسما في وجه الباطل، دون مراوغة أو مداهنة أو دخول في دهاء سياسي، أو محاولة وجود رابطة استعطاف، أو استلطاف مع زعماء قريش" ١.

لأن قضية العقيدة واضحة، لا مساومة عليها، فهي بعيدة كل البعد عن المساومات الرخيصة، أو الإغراءات الباطلة، يتضح هذا الموقف جليا من جواب الرسول عليه السلام على عتبة بن ربيعة، حين خيره بين الكف عن الدعوة، وأن يكون له الملك، والجاه والمال... فرد عليه السلام قائلا: "ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالهم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني جئتمكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي، أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم" ٢.

وبهذا الموقف الإيماني، الثابت، جسد النبي عليه السلام حقيقة صدق رسالته، وأنه فعلا رسول من الله إلى العالمين، كما أثبت أمرا مهما وهو: لا تنازل، ولا مساومة على العقيدة، أو الدين، فمهمته تقتضي تبليغ رسالة ربه للناس، دون أي تحريف أو تزوير.

وما يمكن أن نسجله من خلال سياسة المساومات مع الرسول عليه السلام ما يلي:

-أولا: أن سياسة المساومات، جاءت بعد فشل زعماء مكة الذريع في الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية، وعجزهم التام عن كف الرسول عليه السلام عن الدعوة، وفشل جميع مخططاتهم السرية، والعلنية في خنق الدعوة الوليدة، ووآدها في مهدها، حتى لا تخرج إلى الناس.

-ثانيا: اتضح لكفار مكة أن سياسة التعذيب، والتنكيل، لم تؤت ثمارها، وإنما جاءت بنتائج عكسية، لما كانوا يتوقعون، فالإيذاء، والفتنة لم يزيدا المسلمين إلا إصرارا، وثباتا وعزما، على التمسك بالإسلام، والتعلق به، وبذلك كثر الوافدون الجدد على الإسلام، وأصبح أتباعه يزدادون عددا يوما بعد يوم.

-ثالثا: تغيير طاقم المفاوضات في كل مرة: عمدت قريش إلى تغيير المفاوضين، والمساومين للرسول عليه السلام في كل مرة، في محاولة واضحة للتأثير عليه، بتنويع العقول المفاوضة، وعدم تكرار نفس الوجوه كل مرة، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل صامدا في كل محاولة، ولقن المساومين درسا عمليا في التمسك بالعقيدة الصحيحة، حيث لم يتنازل صلى الله عليه وسلم عن أية جزئية منها، مهما صغرت وظل عليه السلام يردد على مسامعهم أنه مجرد عبد يتبع ما يوحى إليه من الله عز وجل، وأن مهمته هي تبليغ الرسالة إليهم، فإن هم أطاعوه، سعدوا في الدنيا، والآخرة، وإن هم عصوه، فالله يحكم بينهم وبينه، بهزم الباطل، وإظهار الحق.

١ - "الوفود في العهد المكي" لعلي الأسطل: ص: ٣٧.

٢ - "السيرة النبوية" لابن هشام: ١/٣٦٢.

-رابعاً: أن كفار قريش تدرجوا في التنازل من الأكبر إلى الأصغر، لاستمالة قلب محمد صلى الله عليه وسلم، والتأثير فيه، فما طلبه زعماء مكة من محمد صلى الله عليه وسلم في المرة الأولى أكبر بكثير مما طلبوه في المرات المتلاحقة، فكان سقف مطالبهم في المحاولة الأولى: أن يتخلى محمد صلى الله عليه وسلم عن الدعوة إلى الله مقابل الملك، والشرف، والجاه، والمال، ولكن لما رأوا رده الحاسم، وعزمه الصادق على أنه رسول الله، تنازلوا شيئاً، فعرضوا عليه صلى الله عليه وسلم أن يعبد آلهتهم عاماً، وأن يعبدوا إلهه عاماً آخر، فيصبحوا شركائه في هذا الأمر، فيصيبوا الخير أين كان؟؟ لكن نزل القرآن الكريم منها هذه المساومة المضحكة، فصعد عليه السلام بقوله تعالى: { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ } [الكافرون: ٥] وبذلك تنازلوا درجة أخرى - لما رأوا من عزم محمد صلى الله عليه وسلم على التمسك بالعتيدة الصحيحة - فطلبوا منه عليه السلام، أن ي حذف من القرآن، ما يعيب آلهتهم، ويسفه أحلامهم، ويبطل عبادتهم للأصنام، فجاء جوابه عليه السلام حاسماً - كما في كل مرة - أنه مجرد عبد اختاره الله، واصطفاه لتبليغ الرسالة، ولا طاقة له لما يطلبون.

وبهذه المواقف الثابتة، ظلت العقيدة صافية من كل الشوائب، الغريبة عنها، سواء في جوهرها أو في الوسائل الموصلة بها، وظل موقف محمد صلى الله عليه وسلم، واحداً وثابتاً من جميع المساومات والإغراءات، مهما عظمت قيمتها أو كبر حجم إغرائها.

-خامساً: لا بأس بالجلوس مع غير المسلمين للتفاوض أو الحوار معهم، لكن المساومة على العقيدة، والدين خطوط حمراء، لا يمكن تجاوزها، أو تعديها. فكل مساومة أو إغراء يهدران مبدأ من مبادئ الإسلام، أو يسقطان ركناً من أركانه، أو يبطلان حكماً من أحكامه، فهما باطلان، لا يمكن القبول بهما، أو العمل بمقتضاهما، والموقف منهما لا يقبل كثير تردد، أو تفكير، وإنما يجب إعلان الرفض الحاسم وقتئذ، والجهر بذلك، والتمسك بالحق والصبر عليه.

*المبحث الثالث: المقاومة السلمية للمسلمين والدفاع عن النفس عند الضرورة القصوى.

لقد كانت قريش تسعى جاهدة إلى القضاء على الإسلام، منعا لوصول نوره إلى الناس، خارج مكة، فلم تأل جهداً، ولم تذخر وسعاً، في محاولة خنق الدعوة الوليدة، في مهدها. "فكانت العلاقة بين الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحبه الكرام من جانب، وبين المشركين، في مكة المكرمة: علاقة اضطهاد، وظلم، وإيذاء بالغ، ثم حرب ضروس، ومحاولة للقضاء التام، والتصفية، من قبل المشركين، على الإسلام وأهله، وطمس معالمه، فقد قتلوا بالتعذيب عدداً من الصحابة الكرام، وحاولوا قتل الرسول عليه السلام، نفسه، مرات عديدة"١.

وكانت هذه الحرب الضروس، التي شنّها كفار مكة، على السابقين الأولين، غير متكافئة العدد، والعدة، ولم يعترف فيها المشركون بأية مبادئ، أو أخلاق، كما عرفت عند سائر العرب في الجاهلية. وبذلك تخندق الرسول

١ - "نحن والآخرة" للدكتور علي قره داغي: الكتاب الثالث من سلسلة "قضايا الأمة"، ص: ٦٩.

عليه السلام، والمسلمين معه، في خندق المقاومة السلمية، والدفاع عن الدين، والنفس، وقد أبدى الصحابة من صنوف المقاومة السلمية، ما أذهل قريشا، وزرع في نفوس زعمائها، الشك، والارتياب، من قدرتهم وعلى استئصال خضراء الإسلام، وهدم معاملة، والقضاء على أتباعه.

لم يقف المسلمون، مكتوفي الأيدي إزاء اضطهاد قريش، وتنكيلها، بكل من اعتنق الدين الجديد، فتحركوا وفق خطة واضحة المعالم، رسمها الرسول عليه السلام، وأمرهم بتنفيذها بدقة، وحكمة. واقتضت: مقاومتهم لعدوان المشركين بشكل سلمي. وبناء على ذلك انشغل الصحابة بالدعوة إلى الله، وإبراز محاسن الإسلام، حيث كانوا يعضون إلى المجمع العامة، ويتواجدون حول الكعبة ويتصلون بالوافدين إلى مكة، يدعونهم إلى الإسلام، ويشرحون مضامينه، ويوضحون معاملة. ولكن كل ذلك ضمن خطة، محددة، تقتضي عدم الاصطدام المباشر مع العدو، وعدم الوصول معه إلى معركة عنيفة، تقود إلى استعمال السلاح، أو الدخول معه في حرب مميته.

فكان الرسول عليه السلام، يأمر صحابته بعدم رد العدوان، أو مقارعة القوة بالقوة، بل عليهم التحلي بالصبر، وشدة التحمل، ويمكن أن نبرز مقاصد هذا الموقف النبوي فيما يلي:

-أولا: إن فترة المرحلة المكبية، كانت فترة تربية، وإعداد، وخير ما يتربى عليه المسلم: الصبر والانضباط، وتحمل الأذى في سبيل الله، فالصبر رأس المكارم، وقمة الأخلاق، "وقد وصف الله الصابرين بأوصاف مختلفة، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرة له، قال تعالى: { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا } [السجدة: ٢٤]، وقال تعالى: { وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [النحل: ٩٦]".^١ فالصبر يعلم المسلم حسن العبادة، وحسن التصرف، وحسن اتخاذ المواقف السليمة، فلا يكون مندفعاً، أو متهوراً، بل صبورا، وحكيما.

-ثانيا: إن المقاومة السلمية هي أنسب طريقة، وأنجع وسيلة، للحفاظ على حياة المسلمين، والإبقاء على الدعوة الجديدة، لأن القتال والمواجهة -في هذه الفترة الحرجة- إيذان بنشوب حرب لا تبقي، ولا تذر، ويكون الإسلام والمسلمون الطرف الخاسر فيها، بكل تأكيد، لاختلاف موازين القوى في العدد، والعدة، فحكمة الرسول عليه السلام، وتبصره، وحسن قراءته للواقع، جنب الإسلام، وأهله مصيرا مشؤوما، متمثلا في انتحار مبكر، جراء حرب لا هوادة فيها على الدعوة الجديدة وأتباعها.

-ثالثا: تعلم الصحابة، من القرآن الكريم، ومن مواقف النبي صلى الله عليه وسلم: فقه المصالح والمفاسد، وكيفية التعامل مع هذا الفقه، من خلال الواقع المعيش، وبذلك فهم الصحابة أن المصلحة إن أدت إلى مفسدة أعظم، تترك. وهكذا أصبحت ثمار تربية النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه، تؤتي أكلها، فأدركوا مقاصد، وحكم دعوته عليه السلام، لهم بالصبر، وضبط النفس، وتحمل الأذى في سبيل الله عز وجل.

١ - "إحياء علوم الدين" للغزالي: ٨٣/٤: كتاب: الصبر والشكر: الكتاب الثاني من المنجيات.

وأمام ضراوة التعذيب، والتنكيل، الذي صبته قريش على أجساد المسلمين، خاصة المستضعفين منهم، كالعبيد، والإماء، سجلت كتب السير والتاريخ، حالات مقاومة، ودفاع عن النفس - وإن كانت قليلة، ومتفرقة - فقد ظهرت في هذه المرحلة حالات مقاومة فردية، كدفاع مشروع عن النفس، ممن كان يقدر على ذلك من الصحابة، كالذين كانت لهم منعة في قبيلتهم، التي تحميهم من رد فعل قريش ١، أو ممن كان يتحمل جسده، ما ينزل به من العذاب ٢، فلم يكن الرسول عليه السلام يأذن بذلك، إلا لمن وجد في نفسه القدرة على المقاومة الجسدية، أو كان ذا عصبية قبلية، تحميه من أن تمتد أيدي المشركين إليه بالسوء، فكانت أول مواجهة في مكة - حسب ابن هشام - من طرف، سعد بن أبي وقاص حيث: "كان في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين، وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحي بعير، فشجحه، فكان أول دم هريق في الإسلام" ٣.

بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي محاولة منه لتخفيف العذاب النازل على المسلمين الأولين، أذن عليه السلام لبعض هؤلاء المستضعفين من مجارة قريش في سب الدين الجديد حفاظا على أرواحهم، ووقاية لأنفسهم من الهلاك، والموت المحقق، تحت التعذيب، ومن ذلك ما روي عن عمار بن ياسر رضي الله عنهما، حين كانوا يعذبونه بالحر تارة، وبوضع الصخر الأحمر على صدره، تارة أخرى، وقالوا له: "لا نتركك حتى تسب محمدا، أو تقول في اللات والعزى خيرا" فوافقهم على ذلك مكرها، وجاء باكيا، معتذرا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد روي أن رسول الله عليه السلام قال لعمار - وهو يقص عليه ما لقيه - كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن الإيمان فقال صلى الله عليه وسلم: "إن عادوا، فعد" وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] ٤.

ومن وسائل المقاومة السلمية للمسلمين في هذه المرحلة: عتق رقاب العبيد، والإماء ممن اعتنقوا الإسلام، وانخلعوا عن دين الآباء والأجداد، حيث وضع أغنياء المسلمين أموالهم، لتحرير إخوانهم وأخواتهم ممن يعذبون وينكل بهم، كإجراء ضمن الخطة التي وضعها النبي صلى الله عليه وسلم لتخفيف معاناة السابقين الأولين، وقد أحرز قصب السبق في ذلك: أبو بكر الصديق رضي الله عنه "فكان إذا مر بأحد من الموالى، يعذب، يشتريه من مواليه، ويعتقه في سبيل الله، ومنهم: بلال وأمه حمامة، وعامر بن فهيرة، وأم عيس، وزنيرة، والنهدية وابنتها، وجارية لني عدي، كان عمر يعذبها على الإسلام، قبل أن يسلم، حتى قال له أبوه: أبو قحافة: "يا بني، أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو

١ - كأبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم.

٢ - كبلال بن رباح، وصهيب الرومي، وخباب بن الأرت، وعبد الله بن مسعود... رضوان الله عليهم.

٣ - "السيرة النبوية" لابن هشام: ١/١٧١.

٤ - "إمتاع الأسماع" للمقريزي: ١٠٧/٩، و"لباب النقول في أسباب النزول" للسيوطي، ص: ١٦٦.

اعتقت قويا، جلدا، يمنعونك"، فقال أبو بكر: "إني أريد ما أريد" ١ أي أريد الله عز وجل، قال: فيتحدث أنه ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيه، وفيما قال له أبوه: {فأما من أعطى، واتقى وصدق بالحسنى} [الليل: ٥ و ٦] إلى قوله تعالى: {وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولسوف يرضى} [الليل: ١٩-٢١] ٢.

وكان من معالم خطة الرسول صلى الله عليه وسلم السلمية: الإصرار على الدعوة والجهربها، فمنذ أن اعتلت قدما محمد صلى الله عليه وسلم، جبل الصفا بمكة، جاهرا بدعوته، وحديث الإسلام وخبر الدعوة الجديدة في كل بيت، وفي كل ناد، وطريق، فسواء أسر النبي عليه السلام بدعوته، أو جهر بها، فهي محور حديث مجالس المشركين، وشغل يومهم، يظن زعماء مكة أن الدعوة الجديدة مخنوق نورها بمكة، فيفاجئون بأبي ذر الغفاري رضي الله عنه، يطلع عليهم عند الكعبة، ليهزأ بأهتهم وقد آمن بالله ربا، وبمحمد صلى الله عليه رسولا. ويعتقد الواهمون من المشركين من أن التعذيب كبت أصوات المسلمين، وأحرسها، فيقرع أسماعهم صوت عبد الله بن مسعود يصدق بالقرآن بين ظهرانيهم، ويتمطون يوما، متكاسلين، وقد اطمأنوا أن الدعوة حوصرت في البيوت، فيستيقظون على أقدام المسلمين تدق طرقات مكة في صفين على أحدهما حمزة، وعلى الآخر عمر بن الخطاب، وهكذا حرص المسلمون طوال هذه الفترة ألا تنسى دعوتهم، ولا يغيب ذكرها عن مسامع المشركين، وأعينهم.

وبهذا الإصرار على الدعوة، ومداومة الجهر بها، فقد استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم، تحييد بعض الشخصيات والبطون، من محاربة الإسلام والمسلمين. فالكافرون ليسوا سواء! فأبو جهل الذي يؤذي المسلمين بالقول، والفعل، ليس كابن الذغنة، الذي يجير أبا بكر الصديق ليعبد ربه ٣، وأبو طالب الذي وفر الحماية المعنوية، والمادية للرسول عليه السلام لتبليغ رسالة ربه إلى الناس، ليس كألو لهب الذي نزل القرآن بعذابه، وتحديد مصيره يوم القيامة ٤.

وبالرغم من المقاومة السلمية للمسلمين، "أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد سنتين من الجهر بالدعوة، ألا قدرة له على حماية أتباعه من البلاء، الذي ينزل بهم ليل نهار، وأن الزعامة الوثنية ماضية في عنفها، واضطهادها، وتعذيبها لهم، مصممة على استخدام أي أسلوب أي أسلوب لوقف الدعوة عند حدها، وخنقها، وهي بعد في المهدي، ورأى أن يمنح المعذبين، المضطهدين فترة من الوقت يستردون فيها أنفاسهم، ويستعيدون قواهم النفسية،

١ - "الفصول في سيرة الرسول" لابن كثير، ص: ١٠٠.

٢ - "السيرة النبوية" لابن هشام: ١٨٦/١، و"لباب النقول في أسباب النزول" للسيوطي: ص: ٢٠١، في سبب نزول قوله تعالى: {فأما من أعطى، واتقى، وصدق بالحسنى..} من سورة الليل.

٣ - انظر قصة حوار ابن الذغنة لأبي بكر الصديق في: "إمتاع الأسماع" للمقرئزي: ٣١٦/٨ و ٣١٧، وفي: "زاد المعاد" لأبي القيم الجوزية: ٤٦/٢ و ٤٧، و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٤١٩/١.

٤ - انظر قصة أبي لهب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في: "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ١٩٨/١، و"لباب النقول في أسباب النزول" للسيوطي: ص: ٣١١ في نزول قوله تعالى: {تبت يدا أبي لهب، وتب} [المسد: ١].

والجسدية، ويعودون ثانية إلى ساحة الصراع، وهم أقدر وأصلب^١، فأشار عليهم صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة، "فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد"^٢. حتى يجعل الله لهم فرجا مما هم فيه، فاستجاب المسلمون لذلك، فهاجروا متسللين، من مكة صوب الساحل، فأقلتهم سفينتان، كانتا متجهتين صوب الجنوب، فخرج نفر من قريش في آثارهم، لكنهم عادوا بخفي حنين.

إن البقاء بين براثن الشرك، حتى تتمكن الوثنية من عبادة المسلمين، عملية خرقاء، لا معنى لها، لذلك بدأ النبي صلى الله عليه وسلم يبحث عن مكان آمن للدعوة، وقاعدة جديدة للانطلاق، غير مكة، التي حاصر زعماءؤها الدين الجديد، ومنعوا الرسول عليه السلام من تبليغ دعوة ربه للناس.

فكانت الهجرة من مكة آخر الحلول السلمية في خطة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي رسمها للوجود الإسلامي في مكة، فلما ضاقت الأرض على المسلمين، بما رحبت، واشتد عليهم الأذى، أشار عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج من مكة، والهجرة إلى الحبشة، لعل الله يجعل من أرضها تربة صالحة للحفاظ على بذرة الإسلام، حتى يشتد عودها، وتؤتي ثمارها، فكان الأمر، كما خطط رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاش المسلمون في الحبشة آمنين، مطمئنين، في جوار ملك عادل، وطاب لهم المقام عنده، حتى بعد قيام دولة الإسلام في المدينة المنورة.

*المبحث الرابع: الاستفادة من قوانين المجتمع الكافر: [مثلا قوانين: الحماية، والجوار، والتعصب للقبيلة].

تعارف أهل الجاهلية على عدة أعراف، كانت بمثابة قوانين تنظم علاقة بعضهم ببعض، وعلاقتهم بغيرهم من القبائل، ومن هذه القوانين: قانون الحماية، والجوار، "ولقد كان المجتمع الجاهلي يقيم وزنا كبيرا لهذا القانون، وهو حماية القوي الضعيف، فإذا دخل الضعيف في جوار القوي، فإنه يتمتع بحمايته التامة، ويمنع أي اعتداء يقع عليه، ويعطيه حرية التحرك، والتفكير، ولا يستطيع العدو، أن ينال من هذا المستجير"^٣. ويعد أي خرق أو مس بقانون الحماية، والجوار، بمثابة إعلان حرب بين الفريقين، ومن أجل هذا، كان الذي يعلن الإجارة، لا بد أن يكون عزيزا، منيعا في قومه، قادرا على الحماية، ومتوقعا لكل المفاجآت الممكنة.

وقد استفاد الرسول صلى الله عليه وسلم، والمسلمين معه من هذا القانون الجاهلي، ولم ير عليه السلام أي حرج في استغلال قانون الحماية والجوار لصالحه، مادام لا يتعارض مع أي مبدأ من مبادئ الإسلام، أو لا ينقض أية قاعدة من قواعد الدين. وبفضل هذه الحماية، و الحوار تمكن الرسول عليه الصلاة والسلام في المرحلة المكية من أن يسمع صوته إلى الناس، جاهرا بالدعوة، و متمتعا بقدر لا بأس به من الحماية من أذى المشركين، بخلاف

١ - "دراسة في السيرة" لعماد الدين خليل، ص: ٦٤.

٢ - "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ٢١٤/١.

٣ -- "المنهج الحركي للسيرة النبوية" لمنير محمد الغضبان: ٦٨/١.

بعض المسلمين المستضعفين، الذين نالوا قسما وافرا من التعذيب، و التنكيل، لفقدان من يحميهم، و يحول بينهم و بين زعماء مكة المتغترسين.

لقد عاشت الدعوة الإسلامية زمنا طويلا في مجتمع كافر، تحكمه قوانين الشرك، لكن المسلمين، وهم يحاولون تبليغ الإسلام لغيرهم، ما كانوا ليسألوا أنفسهم حين يجدون قانونا من قوانين الكفر، من وضع هذا القانون؟ و إنما كانوا يستبدلون بهذا السؤال: سؤالين مهمين: هل يناقض هذا القانون شريعة الإسلام؟ وهل يفيدني هذا القانون في شيء؟ فإذا كانت الإجابة الأولى بلا والثانية بنعم، استفادوا منه، واستغلوه لصالحهم دون حرج.

لقد كانت الإجابة الأولى في المجتمع المكّي، هي: إجارة أبي طالب لمحمد رسول الله صلى الله عليه و سلم، يقول ابن اسحاق: "وحدث على رسول الله صلى الله عليه عمه أبو طالب، ومنعه، وقام دونه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مظهر لأمره، لا يردده عنه شيء، فلما رأت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعجبهم من شيء، أنكروه عليه من فراقهم، وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب، قد حذب عليه، و قام دونه، فلم يسلمه لهم، مشى رجال إلى أبي طالب، فقالوا: "يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، و عاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا، وبينه"؟ فقال لهم أبو طالب قولا رقيقا، و ردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه، ومضى الرسول صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه، يظهر دين الله، و يدعوا إليه، ثم شرى الأمر بينه، وبينهم، حتى تباعد الرجال، وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها، فتنادوا فيه، وحض بعضهم بعضا عليه" ١.

ونلاحظ من هذه الإجارة ما يلي:

-أولا: إن قريشا كانت تعترف بقانون الإجارة، والحماية، وتطبقه على أرض الواقع، لذا حاولت مع أبي طالب بالرفق، أن يدعو ابن أخيه للكف عن الدعوة للدين الجديد، لكونها تعلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم في جوار، وحماية أبي طالب، لكنها فشلت في المحاولة الأولى.

ولا غرو أن يكرر رسول الله صلى الله عليه وسلم استفادته من قانون الحماية، والجوار، فبعدما اشتد عليه الخناق في مكة، وحوصرت دعوته، ومنعته قريش من تبليغ دعوة ربه إلى الناس، ووقفت سدا منيعا في وصول الإسلام إلى الآخرين، "بدأ عليه السلام يبحث عن منعة، ومكان آمن للدعوة خارج مكة، فقرر التوجه إلى الطائف، في شوال سنة عشر من النبوة، ومعه مولاة زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق، دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها" ٢. "فوصل صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وأقام بين أهلها عشرة أيام، يدعوهم إلى

١ - "السيرة النبوية" لابن هشام: ٢٨٤/١ و"الروض الأنف" للسهيلى: ٣/٢ و ٤.

٢ - انظر تفاصيل هجرته عليه السلام إلى الطائف في: "السيرة النبوية" لابن هشام: ٤١٩/١ و"إمتاع الاسماع" للمقرئى: ١٠٥/٩ و"زاد المعاد" لابن القيم الجوزية: ٤٦/٢.

الإسلام ولا يجيبه أحد، بل ردوا عليه ردا منكرا، حتى أغروا سفهاءهم، وعبيدهم، يسبونهم، ويصيحون به، ويرمونهم بالحجارة" ١ فكان هذا اليوم من أشد الأيام حزنا وأسى على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، خلال مسيرته الدعوية" ٢.

وبعد هذا النصب الشديد، عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة، "حتى إذا دنا منها، مكث رجاء، وبعث رجلا من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليحيره، فقال: "أنا حليف، والحليف لا يجير"، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل: "إن بني عامر لا تجير على بني كعب"، فبعث إلى المطعم بن عدي، فقال المطعم: "نعم، ثم تسلم، ودعا بنيه وقومه، فقال: "البسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجزت محمدا، ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أن أدخل، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعه زيد بن حارثة، حتى إذا انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته، فنادى: "يا معشر قريش، إني قد أجزت محمدا، فلا يهجه أحد منكم"، وانتهى إلى الركن، فأسلمه، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطعم بن عدي، وولده محدقون به بالسلاح، حتى دخل بيته"، وقيل أن أبا جهل سأل مطعما: "أجيز أنت، أم متابع [مسلم]؟ قال: "بل مجير" فقال: "قد أجزنا من أجزت" ٣.

ومن صور الجوار الرائعة، في العصر المكي، ما فعله ابن الدغنة، حينما أجاز أبا بكر رضي الله عنه ٤. وقد استفاد مهاجرو الحبشة، بعد رجوعهم إلى مكة، بعدما بلغهم خبر إيمان قريش بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم، من قانون الجوار والحماية، فدخل كل واحد منهم في جوار أحد المشركين، يقول ابن اسحاق: "فلما بلغ الخبر إلى الحبشة، من سجود أهل مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أقبلوا، فلما دنوا من مكة، بلغهم الأمر، فثقل عليهم أن يرجعوا إلى أرض الحبشة، وتخوفوا أن يدخلوا مكة بغير جوار، فمكتثوا على ذلك حتى دخل كل رجل منهم بجوار من بعض أهل مكة. وقدم عثمان بن مظعون بجوار من الوليد بن المغيرة، وأبو سلمة بن عبد الأسد بجوار من أبي طالب، وكان خاله" ٥.

١ - "الرحيق المختوم" لصفي الرحمن المباركفوري، ص: ١٤٩.

٢ - دليل ذلك، ما رواه البخاري في صحيحه: كتاب بدء الخلق: باب رقم ٥٧: إذا قال أحدكم آمين، رقم الحديث ٣٢٣١ وما رواه مسلم في صحيحه: كتاب الجهاد والسير: باب رقم: ٣٩ ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى والمشركين والمنافقين رقم الحديث ٤٦٧١، من أن عائشة سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله هل أتى عليك يوم، كان أشد من يوم أحد؟" فقال: "لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبي إلى ما أردت...".

٣ - "إمتاع الأسماع" للمقريزي: ١٠٥/٩ و ١٠٦.

٤ - "إمتاع الأسماع" للمقريزي: ٣١٦/٨ و "السيرة النبوية" لابن هشام: ٥٨/٢.

٥ - "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ٢١٨/١.

ونخلص من هذه النماذج للإجارة إلى "أن الاستفادة من قوانين الجاهلية، أمر مشروع، إن كان فيه مصلحة للدعوة، وليس هذا طعنا في الدين، وليس احتكاما لغير شريعة الله، كما يدور بخلد بعض المتحمسين"^١.

وبناء على ما تقدم، فإنه يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين، ويستفيدوا من جوارهم، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، أو كان في مصلحة الإسلام والمسلمين، سواء أكان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي، الذي كان نصرانيا عندئذ، ولكنه أسلم بعد ذلك^٢، أو كان مشركا، كإجازة أبي طالب لمحمد صلى الله عليه وسلم، وابن الدغنة لأبي بكر، والمطعم بن عدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم...

وقد استفاد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأصحابه من قانون آخر، كان له اعتبار كبير في الجاهلية وهو: "العصبية القبلية"، حيث كانت القبيلة عند العرب، تمثل الحماية والوقاية، وكان التعصب إليها أمرا محمودا بل واجبا في كثير من الأحيان، كالتأثر لمقتل أحد أفرادها، أو رد العدوان عليها، أو دفاعا عن شرف بناتها، ونسائها.

لقد كانت الحياة العربية قبل الإسلام، تقوم أساسا على "وحدة والقبيلة"، فكان انتماء العربي الجاهلي انتماء قبليا، حيث تعد القبيلة: "وحدة اجتماعية وسياسية، يجمعها العرق، والدم وهي جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد وينحدرون من أب واحد، والرابط الذي يجمع أفراد تلك الجماعة هو الشعور بالانتماء إلى القبيلة"^٣. وهذا الشعور يسمى "بالعصبية" وهي: "النعرة على ذوي القربي، وأهل الأرحام أن يناههم ضيم أو تصيبهم تهلكة، وتكون العصبية بين أهل النسب الواضح، ومن صاهرهم أي تزوج من نساء منهم، أو تزوجوا هم من نسائه، أو ينتسب إليهم بالولاء أو الحلف"^٤.

وإذا استقرنا أحوال المجتمع العربي في الجاهلية، وجدناه مجتمعاً قبائليا، مفككا، ينقسم إلى وحدات متعددة، قائمة بذاتها، تمثلها القبائل المختلفة، "وكانت العصبية القبلية تقضي على فكرة الترابط السياسي، حيث كان يعاب على العرب الجاهليين: افتقاد النزعة أو الشعور بالقومية الشاملة، والسبب في ذلك: أن وعيهم السياسي كان ضعيفا، محدودا لا يتجاوز القبيلة أو القبائل المنتمية إلى الجذ المشترك"^٥.

١ - "المنهج الحركي للسيرة النبوية" لمنير محمد الغضبان: ٧٣/١.

٢ - والدليل على ذلك أن رسول الله الله وسلم صلى الله عليه يوم وفاته، انظر صحيح البخاري: كتاب ٢٣: الجنائز، باب رقم ٦٤: التكبير على الجنائز أربعا: وفيه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه وخرج بهم إلى المصلى، فصاف بهم وكبر عليه أربع تكبيرات" رقم الحديث ١٣٣٣، وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على أصحابه النجاشي، فكبر أربعا" رقم الحديث ١٣٣٤.

٣ - "دور الرسول في تحضر العرب" محمد مسعد ياقوت، ص: ٠٣ وما بعدها.

٤ - "المقدمة" لابن خلدون، ص: ٥٦.

٥ - "دراسات في تاريخ العرب" للدكتور عمر فروخ، ص: ٥٧٠.

إن رابطة العصبية عند العرب في الجاهلية هي: شعور التماسك، والتضامن، والاندماج فيما بينهم، وهي على هذا النحو: مصدر القوة السياسية، والدفاعية التي تربط بين أفراد القبيلة، وتعادل في وقتنا الحاضر: الشعور القومي عند شعب من الشعوب ١.

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك هذا الواقع جيدا، لذا كانت القبيلة ملاذ الآمن، وحصنه الحصين، كلما اشتدت عليه الشدائد، وضاق عليه الخناق، وقد لعبت القبيلة دورا محوريا في حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذود عنه، وكان زعيم بني هاشم، وبني عبد المطلب مهموما بأمر ابن أخيه، ومتخوفا عليه من تنامي وتيرة العداء ضده من زعماء قريش، فبعد جهر محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة، تغيرت مجرى الظروف في مكة، حيث كثر أتباع الدعوة الجديدة، ولم يعد أمر الانتساب إليها، مقتصر على العبيد والإماء، بل وزحف الإسلام برفق ليدخل إلى أعز بيوت مكة، فأشهر خير شبابها ورجالها الإسلام، وفشلت الوثنية فشلا ذريعا في خنق الدعوة، ووأدها، وبذلك أصبحت عقول مشركي مكة تفكر في الإجهاز على رأس الدعوة الإسلامية، بل وجهرت أصواتهم بذلك، إن قتل محمد صلى الله عليه وسلم يعني إطلاق رصاص الرحمة على الدين الجديد، والاستراحة من همه نهائيا.

كان أبو طالب يتأمل هذه الأحداث، ويدرس حيثياتها، وينزعج من نتائجهما، فالمشركون فاضوه على أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وهددوه بالمنازلة، ثم ساوموه على قتل ابن أخيه، وبلغ إلى مسمعه ما يلقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى... كان أبو طالب يتدبر بعمق هذه الوقائع، ويشم منها رائحة شر يرجف له فؤاده، ويتقن أن المشركين عازمون على إخفار ذمته، مصممون على قتل ابن أخيه، لذلك "لما رأى تآلب قريش على ابن أخيه، قام في أهل بيته من بني هاشم، وبني عبد المطلب، ولدي عبد مناف، ودعاهم إلى ما هو عليه، من منع ابن أخيه، والقيام دونه، فأجابوه إلى ذلك، مسلمهم وكافرهم، حمية للحوار العربي، إلا ما كان من أخيه: أبي لهب، فإنه فارقهم، وكان مع قريش" ٢.

"فكان الدافع إلى تلك الحماية: العصبية ولا شيء غير العصبية، فأنفة بني هاشم، وبني عبد المطلب وعزة أنفسهم دفعتهم إلى الذود عن حياة ابن عم لهم، إذا طالتها يد غريب بالسوء، والحمية الجاهلية إذ ترفع ذوي القرابة إلى مثل هذا التعصب، لا تنظر إلى مبدأ، ولا تتأثر في ذلك بحق، أو باطل" ٣. والدليل على ذلك أن بني هاشم، وبني عبد المطلب آثروا أن يجمعوا في صدورهم، بين رغبتي متناقضتين ٤:

١ - "تاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام" للدكتور السيد عبد العزيز سالم، ص: ٣٥٩.

٢ - "الرحيق المختوم" لصفي الرحمن المباركفوري، ص: ١٢٧.

٣ - "فقه السيرة" للبطوي، ص: ١٣٤.

٤ - "فقه السيرة" للبطوي، ص: ١٣٣ بتصرف.

-الأولى: البقاء على الشرك والكفر، ثم الاستكبار على الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

-الثانية: الانصياع إلى الحمية والمبادرة إلى حماية محمد صلى الله عليه وسلم، من بطشة الغريب وظلمه، عصبية وليس اقتناعاً بدعوته عليه السلام.

لقد أقدم أبو طالب على "خطوة حاسمة، حيث دعا بين هاشم، وبني عبد المطلب ليحملوا مسؤولياتهم كاملة في حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن موقع زعامته لبني هاشم، وبني عبد المطلب، استجاب له الجميع لذلك، فحملوا سلاحهم من منطلق العزة القبلية، والأنفة العشائرية"^١.

ولكن إن حماية القبيلة للرسول صلى الله عليه وسلم، والذود عن دعوته، لن تستمر طويلاً، فقد توفي أبو طالب فخلفه على الزعامة القبلية "أبو لهب" وهو من أشد أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكثرهم حقداً على الإسلام والمسلمين، فغير "الزعيم الجديد" خطة القبيلة، واستراتيجيتها نحو الدعوة الإسلامية، فكان أول قرار وقعه هو: تخلي بني هاشم، وبني عبد المطلب عن حماية ونصرة محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته، وتأكيد ذلك جلياً، عند رجوعه عليه السلام من الطائف، حيث لم يتجرأ أحد من قبيلته على جواره، إلا ما كان من المطعم بن عدي، فدخل صلى الله عليه وسلم مكة في جواره.

*المبحث الخامس: الاستفادة من العناصر المشتركة بين الإسلام والعقائد الأخرى.

لقد تجهم غير المسلمين من أصحاب العقائد الأخرى، لظهور الإسلام، وبعثة محمد صلى الله عليه وسلم، واعتبروه نافلة يستغنى عنها، ولا حاجة إليه البتة، ومن ثم اعتبروا ظهور هذا الدين الجديد تحداً لهم، ولبقائهم، فناصبوه العداً منذ اللحظات الأولى لظهوره إلى الناس، والحقيقة أن دين الإسلام قد جاء امتداداً لهذه العقائد السماوية، ومصداقاً لها، ومبيناً ما لحقها من تحريف وتبديل، ولم يأت لإبادة من يدين بغيره، بل جاء في المقام الأول مكملها، ومهيماً عليها، ومصلحاً لما أفسده أصحابها، ومعالجاً لما حرفوه منها، قال تعالى: ﴿وانزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه﴾ [المائدة: ٤٨].

أما عن علاقة الإسلام بالعقائد السماوية الأخرى، فهي تحصيل حاصل حسب الشيخ محمد عبد الله دراز، "لأن كلمة الإسلام بالمعنى القرآني، بنجدها لا تدع مجالاً لهذا السؤال: عن العلاقة بين الإسلام وسائر الأديان السماوية، فالإسلام في لغة القرآن، ليس اسماً لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك، الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء"^٢.

١ - "المنهج الحركي للسيرة النبوية" لمنير محمد الغضبان: ٧٣/١.

٢ - نقلاً عن "التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام" للغزالي، ص: ٦٩.

وصور الرسول صلى الله عليه وسلم تكامل الرسالات السماوية أحسن تصوير فقال عليه السلام: "إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: "فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين" ١.

كانت الرسالات السماوية مجرد لبنات متراكمة في بناء صرح الإسلام، وكانت مهمة اللبنة الخيرة، أنها أكملت البنيان، وحسنته، وجملته. كما كانت حجر الزاوية الذي يقوي أركان البيت ويحفظه من التصدع والانشقاق، وصدق الله عز وجل إذ يصف محمدا صلى الله عليه وسلم: {بل جاء بالحق وصدق المرسلين} [الصفافات: ٣٧].

"وعلى ذلك فالإسلام هو الدين الذي اتحد جميع الرسل على نشره، وتخليصه من شوائب ما وضعه الواضعون، وإن الإسلام ليس بدين جديد، جاء لأمة معينة، وإنما هو الدين الذي أوحاه الله إلى جميع رسله، فحرفه أتباعهم، ثم أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم أخيرا لإحداث إصلاح ديني عام لسائر الملل، ليكون دينها العام الذي عليه يتم اتحادها، لذلك جعل قاعدته: الإيمان بجميع رسل الله، من نعرف أسماءهم، ومن لا نعرف، وبجميع كتب الله بأي لغة كانت" ٢.

إن فهم هذا الأمر حق الفهم، يفيد المسلم وغير المسلم، يفيد المسلم في معرفته، أنه تابع للدين الأصلي الجامع لسائر العقائد السماوية، ويؤمن بجميع الرسل، ويصدق بجميع الكتب وأما فائدة غير المسلم من فهم هذا الأمر، فلكونه يسهل عليه الخروج من ورطته، والتخلص من شكوكه وشبهاته، فإنه ما من عاقل من عقلاء الملل والأخرى، إلا وتيقن بأن أيدي الخرافات قد امتدت إلى أصول عقائده، فحرفتها، وعبثت بصفاء تعاليمها، فيجد نفسه مضطرا للتأفف منها، راجيا حقيقتها، وإصلاحها، لذلك فلو علم أن الإسلام جاء بالإصلاح الشامل لسائر الشرائع السماوية، لكان رجوعه إليه أمر ضروريا ومحتما. فكلما آلمه أمر مما يزعجه في دينه، وظنه منحرفا عن أصله وحقيقته كعقيدة الصلب والتثليث... لجأ - مضطرا - إلى الإسلام للبحث عن الجواب الشافي، عما يعانيه، ويقلق أمنه النفسي والروحي.

وبناء على كل ما تقدم، فقد استفاد الرسول عليه السلام من العناصر المشتركة بين الإسلام والعقائد الأخرى - وما أكثرها - خلال مقامه في مكة، فقد "كانت هناك هدنة - إذا صح التعبير - بين الإسلام والنصرانية واليهودية في هذه المرحلة، وعقائد اليهود لم تتغير، وعقائد النصرانية لم تتغير، ولكن المعركة في هذه المرحلة [المكية] مفتوحة مع الوثنية" ٣.

١ - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب ٦١: المناقب: باب رقم: ١٨ / خاتم النبيين، رقم الحديث ٣٥٣٥: ٢/٦٢٧.

٢ - "صفوة العرفان في تفسير القرآن" لمحمد فريد وجدي، ص: ١٤٠.

٣ - "المنهج الحركي للسيرة النبوية" لمنير محمد الغضبان: ١/١٢٥.

وتتجلى هذه الهدنة - المؤقتة - مع اليهود، "بما تضمنته كتبهم، ومصادرهم الدينية من تأكيد على النبوة الجديدة والأخيرة في تاريخ النبوات، وإن لم تصرح جميعا ماذا سيكون هذا النبي، يهوديا أم غير يهودي؟" ١. وتمثل عمليا، موقف اليهود من ظهور دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن بين الديانتين قواسم مشتركة، حينما حل الوفد المكي إلى يثرب، ومضوا إلى اليهود يسألونهم عن دين محمد صلى الله عليه وسلم باعتبارهم أهل كتاب، فقالوا لهم: "سلوه عن ثلاث، فإن أجابكم عنها فهو نبي مرسل، وإلا فهو متقول كذاب، سلوه: عن رجل طاف في الآفاق، ماذا كان خبره؟ وسلوه عن فتية من الدهر الأول، ماذا كان خبرهم؟ وسلوه عن الروح، ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك، فاتبعوه فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم" ٢.

وقد أجاب صلى الله عليه وسلم عن أسئلة اليهود، ونزلت سورة الكهف تبين حقيقة ما قاله الرسول عليه السلام ٣.

"وبذلك شعر المشركون على الأقل، أن اليهود ومحمد صلى الله عليه وسلم في معسكر واحد" ٤، ويقفون على أرضية مشتركة، وأن بينهما ما يجمع، أكثر مما يفرق، وبذلك ضمن صلى الله عليه وسلم ود وحياد اليهود في المرحلة المكية على الأقل.

أما الموقف الثاني في علاقة الإسلام بالنصرانية، في مكة، فقد جاء متمثلا في وفد النصارى الذين حضروا إلى مكة من الحبشة ليتعرفوا على معالم هذا الدين، ثم ما لبثوا أن أعلنوا إسلامهم ٥.

إن إسلام هذا الوفد، زاد من مخاوف قريش وزعمائها، فتأكد لديهم أن الإسلام والنصرانية بينهما من القواسم المشتركة ما يجعلهما في حلف واحد مشترك، فالديانتين معا تتفقان على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته، حيث ذكر الإنجيل صفات محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوصافه مما جعل النصارى يتعرفون إليه، ويؤمنون برسالته، ونفس الأمر حصل مع اليهود الذين وجدوا أوصاف محمد صلى الله عليه وسلم، وخصائص رسالته في توراتهم.

إن إيمان أهل الكتاب بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم، "بمجرد استمرار لإيمانهم السابق، وبمجرد سلوك بمقتضى ما كانوا يتمسكون به من عقيدة ودين، فقد كانوا -على حد تعبير رواة السيرة - أهل إنجيل وتوراة، وبما كان الإنجيل

١ - "دراسة في السيرة" للدكتور عماد الدين خليل، ص: ٢٦٥.

٢ - راجع القصة بكاملها في: "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ١/٢٣٨ وما بعدها، و"السيرة النبوية" لابن هشام: ١/١٧٤ وما بعدها.

٣ - "لباب النقول في أسباب النزول" للسيوطي، ص: ١٧٧ في أسباب نزول آيات الكهف.

٤ - "المنهج الحركي للسيرة النبوية" لمنير محمد الغضبان: ١/١٢٥.

٥ - "السيرة النبوية: لابن اسحاق: ١/٢٥٢ و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٢/٢٦ وما بعدها.

والتوراة يأمران أتباعهما بإتباع الرسول عليه السلام، وتحدثا عن صفاته ومميزاته، فقد كان من مقتضى استمرار إيمانهم: الإيمان بهذا النبي وهو صلى الله عليه وسلم" ١.

وقد استفاد الرسول صلى الله عليه وسلم من هذه الأرضية المشتركة بين الإسلام والعقائد الأخرى، وظل السلام قائما بينهما على الأقل خلال المكية - وبذلك أمن صلى الله عليه وسلم جانب النصارى واليهود خلال مقامه في مكة، فكان عليه السلام "يكتفي من دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام بمجرد مطالبتهم بتطبيق ما في التوراة والإنجيل، اللذين يدعون الإيمان بهما، فقال جل جلاله: {قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل} [المائدة: ٦٨] ٢".

* الفصل الثاني: العلاقة مع غير المسلمين في حالتها القوة والتمكين [المرحلة المدنية نموذجاً].

* المبحث الأول: علاقة المسلمين باليهود: نشأتها وتطورها:

إن علاقة المسلمين باليهود قديمة قدم التاريخ نفسه، ترجع في بدايتها الأولى إلى بشارة كتبهم السماوية ومصادرهم الدينية بنبوة جديدة وأخيرة في تاريخ النبوات، وإن لم تصرح هذه المصادر من سيكون هذا النبي يهوديا أو غير يهودي؟

والمهم من ذلك كله، أن اليهود كانوا على علم ببعثة رسول خاتم، وجدوا أوصافه في توارثهم، فعن زيد بن أسلم قال: بلغنا أن عبد الله بن سلام كان يقول: "إن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأمينين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخب بالأسواق ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة المتعوجة بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا) فبلغ ذلك كعب الأخبار فقال: "صدق عبد الله بن سلام إلا أنها بلسانهم: {أعينا عموميين وآذانا صموميين وقلوبا غلوفيين} ٣".

ولم تكتف التوراة بذكر صفات محمد صلى الله عليه وسلم وزمان ومكان بعثته، بل ذكرت اسمه صريحا حيث: "جاء في حاشية الأصل العبري: "مشتهى كل الأمم حمدوت أي: الذي تحمده كل الأمم" فالتوراة إذن صرحت باسم محمد [حمدوت] ولكن الترجمة ابعدت لفظة "محمد" لتضع مكانة مرادفا يصرف الذهن عن الاسم الحقيقي هو: "مشتهى كل الأمم" ... وقد اثبتت الأيام أن الرسول المبشر به هو: محمد صلى الله عليه وسلم" ٤.

١ - "فقه السيرة" للبطي، ص: ١٤٥ بتصرف.

٢ - نفس المصدر، ص: ١٤٥.

٣ - "الطبقات" لابن سعد: ١٧/١ وقد حشد فيها والكثير من الروايات التي تؤكد علم اليهود بنبوة محمد.

٤ - "محمد في التوراة والإنجيل والقرآن" لإبراهيم خليل أحمد، المقدمات، ص: ٢٢.

وقد تعددت الروايات التاريخية - بما لا يدع مجالاً للشك - التي تؤكد إرهابات مجيء الرسول الجديد، وتذكر صفاته، من أجل ذلك راح اليهود يعلنون بين الفينة والأخرى عن قرب ظهور النبي الأخير، ويتباهون بذلك، ويهددون غيرهم بالانتماء إليه، ويتوعدونهم من أجل مزيد من السيطرة والنفوذ والإذلال واحتكار الأموال للعرب المحيطين بهم، لكن لم يكن يدور في خلد اليهود، وفي قرارة أنفسهم أن النبي الجديد قد ينتمي إلى سلالة أخرى غير السلالة اليهودية المعروفة.

وفي انتظار اللحظة الموعودة، وخلال الأجل المحدد في التوراة والإنجيل، لم يظهر في اليهود النبي الموعود وولد محمد صلى الله عليه وسلم في مكة، يحمل علامات نبوته المادية والمعنوية، تحكي الروايات: "أنه عندما ولد محمد صلى الله عليه وسلم بمكة، كان بها يهودي يدعى يوسف، فتوجه مع بعض وجوه قريش إلى آمنة فقالوا لها: "أخرجي لنا ابنك، فأخرجته، وكشفوا عن ظهره، فرأى الشامة [علامة النبوة]. فخر مغشياً عليه، فلما أفاق، قالوا: ويلك ما بك؟ قال: "ذهبت النبوة من بين إسرائيل" ١. وبذلك أصبح الطفل محمد صلى الله عليه وسلم في خطر دائم من اليهود، وهذا ما يفسر به أن بحيرا الراهب نصح أبا طالب أن يبعد محمداً عن اليهود فقال له: "والله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً" ٢. ثم أردف قائلاً: "فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم" ٣.

وبعث محمد صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة من ميلاده، وخاض جهاداً مريراً في الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة إلى الناس، متحدياً مشركي قريش، الذين لم يعدوا وسيلة ولا رأياً في إخماد جذوة رسالته ووآد حركته. "ورغم قلة الروايات وانعدامها أحياناً فإننا نستطيع أن نجزم بأن اليهود وقفوا طيلة الصراع المكّي الذي دام ثلاثة عشر عاماً، وراء قريش يتبادلون معها الوفود ويتصلون بها سرا، من أجل أن يشددوا قبضتهم على النبي العربي، وأن يشلوا حركته قبل أن يشتد ساعدها، وتغدو قادرة على اكتساح كل من يقف في طريقها ليصدها عن هدفها المحتوم، وثنيا كان أم يهودياً" ٤.

فشلت محاولات الوثنية، وحليفاتها اليهودية في وأد الدعوة الإسلامية في مكة، واستطاع عليه السلام ومن معه من السابقين الأولين الصمود في وجه مشركي مكة، وتوج هذا الصمود بهجرة رائعة إلى المدينة المنورة، والتي أنشأ بها عليه السلام دولته الإسلامية المنشودة. لم يكن اليهود في المدينة قادرين - أول الأمر - على إعلان عداوتهم المكشوفة للدولة الناشئة، ولصاحبها عليه السلام، ولأتباعها من عرب المدينة الذين يزدادون كثرة يوماً بعد يوم، كما و لم يكن في مصلحتهم أن يقودوا بأنفسهم زعامة مقاومة الإسلام، وقريش لا تزال على قوتها وقدرتها في حرب المسلمين، لذلك ظل اليهود يشاهدون أطوار الصراع الإسلام الوثني، ويتأملون أحداثه، ويخططون على ضوء

١ - "إمتاع الأسماع" للمقريزي: ١/١٠٤، و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٢/٤٢٦.

٢ - "إمتاع الأسماع" للمقريزي: ١/٨.

٣ - "السيرة النبوية" لابن هشام: ١/٣٦.

٤ - "دراسة في السيرة" لعلماد الدين خليل، ص: ٢٦٨.

نتائج المتوقعة، وهذا ما يفسر به موافقة معظم قبائل اليهود على "الدستور" الذي طرحه الرسول عليه السلام لتنظيم الأمور السياسية والاجتماعية والدينية في يثرب، ودخلوا أطرافا فيه برغبة مشوبة بالحذر الشديد.

ويمكن أن نميز في علاقة المسلمين باليهود بثلاثة مراحل أساسية وهي:

- المرحلة الأولى: مرحلة الهدنة المشوبة بالحذر.

- المرحلة الثانية: مرحلة الحرب المعنوية والنفسية التي شنها اليهود على الإسلام والمسلمين.

- المرحلة الثالثة: الصراع المسلح والقضاء على الوجود اليهودي في المدينة.

* المطلب الأول: مرحلة الهدنة المشوبة بالحذر.

ساد العلاقة بين المسلمين واليهود نوع من السلم المؤقت والهدنة المحدودة، وكان ذلك في أعقاب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وبعد كتابة "الوثيقة" التي نظمت العلاقة بينهم، فقد اتصل الرسول عليه السلام باليهود، ودعاهم إلى الإسلام استجابة لأمر الله في وجوب تبليغ دعوته إلى الناس كافة، {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: 158].

لم يستجب لدعوة الإسلام إلا نفر قليل من اليهود، يتقدمهم عبد الله بن سلام^١. فبالرغم من أنهم كانوا أهل دين سماوي له امتداد تاريخي، ويعرفون معنى النبوة وخصائصها وصفاتها، ويدركون الحقائق الاعتقادية المشتركة بين أهل الديانات، ويستطيعون - بكل يسر وسهولة - أن يتأكدوا من صدق محمد صلى الله عليه وسلم أو كذبه لكنهم أصموا آذانهم دون دعوته، ومع ذلك سارت العلاقة بين الرسول صلى الله عليه وسلم واليهود سيرا حسنا في بداية أمرها. فكان محمد صلى الله عليه وسلم يتطلع أن يتفهم اليهود دوافع حركته الدينية وأهدافها، باعتبارهم أهل الكتاب، لاسيما أنهم يرون بأم أعينهم دلائل صدقه وقرؤونها في كتبهم.

رأى اليهود هذا التعاطف الإسلامي إزاءهم من محمد صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه، لكنهم لم يفهموا أسبابه، ودوافعه، فاعتقدوا خاطئين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما يعترف بأرجحية عقيدتهم التي يؤمنون بها، أو أنه عليه السلام سوف يتركهم وشأنهم، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك وظنوا - متوهمين - أنهم ربما يتمكنون يوما من استمالة محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه إلى دينهم!!

إلا أن هذه الظنون سرعان ما تلاشت، فأدركوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم بكل وضوح، عندما توالى دعوته على ضرورة دخولهم في الدين الجديد، إن أرادوا الحفاظ على جوهر يهوديتهم التي جاء بها موسى عليه السلام. ثم توالى آيات القرآن الكريم تنزل سخطها وغضبها على ما يمارسه اليهود بحق دينهم وكتبهم من تحريف وتزييف من

١ - انظر تفاصيل قصة إسلام عبد الله بن سلام في: "السيرة النبوية" لابن هشام: ١٠٣/٢ وما بعدها.

٣- الخداع والتلبيس: استخدم اليهود أسلوب الخداع والتلبيس قصد التشكيك في الإسلام ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقد كانوا يظهرون الإسلام لفترة من الزمن ثم يرجعون عنه بعد ذلك، لتشجيع المسلمين على الارتداد عن دينهم، وقد ذكر القرآن هذه الصفة فيهم فقال تعالى: {وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم} [آل عمران: ٧٢].

٤- الاستهزاء بالدين واحتقار شعائره: اتبع اليهود طريقة الاستهزاء بالإسلام والسخرية من شعائره، وعباداته، وقد فضح الله مسلكهم هذا في كتابه العزيز، ونهى المؤمنين عن موالاةهم فقال عز من قائل: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون} [المائدة: ٦٠].

٥- إيقاع الوقيعة بين المسلمين لهدم وحدتهم: كان اليهود يتربصون بالمسلمين للإيقاع بينهم، ونشر الفرقة في جماعتهم وإحداث فتنة اجتماعية تكون بمثابة شرارة فتيل حرب بين طوائف المسلمين خاصة الأوس والخزرج ومن ذلك، "ما فعله شأس بن قيس - وكان شيخاً قد عسا، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، عندما مر على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملاً بني قبيلة بهذه البلاد، لا والله ومالنا إذا اجتمع ملؤهم، بما من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعثت ١. وأنشدتهم بعض ما كانوا تناولوا فيه من الأشعار" ٢.

قال ابن اسحاق: "ففعّل ذلك، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواتب رجلان من الحيين على الركب... فبلغ ذلك رسول الله فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم وقال: "يا معشر المسلمين الله الله، أبدوّة الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم" ٣.

٦- تعاون اليهود مع المنافقين للكيد للإسلام والمسلمين: زادت علاقة المسلمين باليهود توتراً بعد انضمام اليهود إلى المنافقين في حربهم النفسية ضد المسلمين، "حيث جاء في الآيات الأولى من سورة البقرة التي هي أول السور

١ - يوم بعثت: يوم من أيام الجاهلية اقتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس.

٢ - "السيرة النبوية" لابن هشام: ١٣٢/٢.

٣ - نفس المصدر: ١٣٣/٢.

المدنية في ترتيب النزول، وبصدد الحديث عن المنافقين: {وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا منا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون} فقد أجمع جمهور المفسرين أن شياطينهم هم اليهود، ويدل على هذا أن اليهود هم الذين أغروا المنافقين بالنفاق، أو شجعوهم عليه في مواقف الخداع" ١. وقد ذكر ابن هشام أسماء اليهود الذين أسلموا نفاقاً وتشجيعاً لغيرهم على النفاق لهدم صرح الإسلام من الداخل ٢.

*المطلب الثالث: الصراع المسلح والقضاء على الوجود اليهودي في المدينة ونواحيها.

وابتدأت هذه المرحلة من علاقة المسلمين باليهود، بنقض العهود، فأول ما فعله اليهود أنهم نقضوا عهودهم وموآثيقهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمسلمون لم يحدثوا أنفسهم أبداً بذلك، ولا فكروا في طرد اليهود من أرض الجزيرة العربية، بل على العكس كانوا يأملون منهم أن يكونوا عوناً لهم في حرب الوثنية باعتبارهم أهل كتاب. بيد أن اليهود كانوا أسوأ ظناً، فلم تمض أيام على انتصار المسلمين في بدر حتى راحت قبائلهم تنقض عهودها، وتخون موآثيقها، وكان بنو قينقاع أول من نقض العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بنو النضير ومن بعدهم بنو قريظة، وينبغي التذكير أن نقض العهود هو أحد سمات اليهود على مر التاريخ، وقد نبه القرآن الكريم على هذه الخصلة فيهم فقال تعالى: {إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهودهم في كل مرة وهم لا يتقون} [الأنفال: ٥٨].

وكان أول صدام مبكر بين الإسلام واليهود، ذلك الذي حدث في أعقاب معركة بدر... بدأ اليهود الذين صدمتهم نتيجة المعركة، التي لم يكونوا يتوقعونها، يروجون الشائعات ضد المسلمين، ويشنون حرباً نفسية ضد رسوله ودعائه ويمارسون التجسس على المسلمين لصالح المشركين، حيث نقلوا كافة المعلومات عن نوايا المسلمين وحركاتهم إلى قريش ٣.

وإزداد الموقف توتراً في أعقاب حادثة سوق بني قينقاع، حيث جلست امرأة مسلمة إلى صائغ يهودي تباع بضاعتها، فتقدم إليها عدد من اليهود وطلبوا منها كشف وجهها فأبت، فعمد الصائغ إلى التحرش بها، مما أضحك اليهود المتجمعين حولها، فصاحت المرأة، فما وسع رجل من المسلمين إلا أن وثب على الصائغ اليهودي فقتله، فشد اليهود على المسلم فقتلوه، واستصرخ أهل المسلم أتباعهم، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع ٤.

وبذلك نقض بنو قينقاع بنود دستور المدينة، وخرقوها، "فحاصروهم عليه السلام على حضورهم الواقعة داخل المدينة في شوال من السنة الثانية للهجرة، وقد استمر الحصار خمس عشرة ليلة، وانتهى بنزول اليهود على حكم

١ - "سيرة الرسول" لدروزة: ١٢١/٢.

٢ - راجع أسماء هؤلاء اليهود المنافقين في سيرة ابن هشام: ١١٠/٢ و ١١١.

٣ - "الرسول القائد" لشيت خطاب، ص: ٩٢.

٤ - "البداية والنهاية" لابن كثير: ٤/٣ و ٤.

الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قضى بإجلالهم عن يثرب إلى أي مكان يشاؤون" ١. دون أن ينزل بهم أية عقوبة أخرى، وبخروجهم إلى اذرعاع من بلاد الشام، تخلص المسلمون من واحدة من القبائل الرئيسية الثلاث التي استوطنت المدينة منذ أمد بعيد.

وبعد هذا الجلاء، خمدت نار اليهود المتأججة - ولو لحين - وضعفت همتهم في الكيد للإسلام والمسلمين، لكنهم تنفسوا الصعداء بعد هزيمة المسلمين في أحد، فراحوا يظهرن ضغائنهم على الإسلام والمسلمين، ويطلقون الأقوال السيئة خاصة بعد فاجعتي: الرجيع وبئر معونة وتأليب الأعراب الوثنيين ضد المسلمين، وبذلك عاود اليهود نشاطهم الاستفزازي ضد الإسلام وأتباعه، فقرر بنو النضير التآمر على حياة محمد صلى الله عليه وسلم في السنة الرابعة للهجرة. "حيث ذهب عليه السلام إلى حصونهم بصحبة عدد من كبار الصحابة، يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر، كان أحد أصحابه قد قتلها خطأ في أعقاب نجاته من حادثة بئر معونة، فوجدها يهود بني النضير فرصة سانحة لقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبينما هو يستريح أسفل جدار بيت من بيوتهم، استشار بعضهم البعض بإلقاء صخرة على رأسه صلى الله عليه وسلم، فتطوع للقيام بذلك عمر وجحاش بن كعب، فبينما هو يصعد لتنفيذ المؤامرة نزل الوحي الأمين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم بما يدبر له، ثم غادر عليه السلام المكان عائدا إلى المدينة" ٢.

وبعد ذلك أمهل الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود مغادرة المدينة خلال عشرة أيام، وأن من شوهد بعدها منهم، ضربت عنقه، ولما لم يستجيب بنو النضير لإنذاره عليه السلام، أصدر أمره بالتهيؤ للمسير إلى حصون بني النضير وقتالهم، وبعد حصار دام خمسة عشر يوما استسلم يهود بني النضير، ووافقوا على الجلاء إسوة بإخوانهم من بين قينقاع" ٣. وهكذا تم إجلاء القبيلة الثانية من اليهود بسبب نقضها العهد، وخرقها الميثاق وخرقها الذمة وخيانتها الرسول صلى الله عليه وسلم.

لم يشأ زعماء بني النضير الذين استقروا في خيبر أن يظلوا ساكنين إزاء هزيمتهم، وامتداد الإسلام إلى كل مكان، وتدارسوا الأمر فيما بينهم، ففكروا في تكوين تحالف كبير ومهاجمة المدينة لاستئصال حضراء المسلمين، وسرعان ما شرع اليهود في تنفيذ ما اتفقوا عليه، وبدأوا في الاتصال بقريش وخطفان وبقية القبائل العربية، وإقناعها بفكرة التحالف ضد الإسلام ومحاربتة، وقد شارك يهود بني قريظة - الموقعين على صحيفة المدينة - في هذا التحالف، وبذلك نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد بلوغ الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،

١ - "الكامل في التاريخ" لابن الأثير: ١٣٨/٢.

٢ - السيرة النبوية" لابن اسحاق: ٣٨٢/٢ وما بعدها.

٣ - : الرحيق المختوم" لصفى الرحمن المباركفوري، ص: ٣٤٨.

تحصن بالمدينة، وصمد المسلمون لمحنة الأحزاب وتمكنوا من دحر أخطر هجوم في تاريخ الإسلام ١. وبعد تفكك عرى الأحزاب ورجوعها خائبة إلى ديارها سار الرسول صلى الله عليه وسلم بالمسلمين إلى يهود بني قريظة، وبعد حصار دام خمس وعشرين ليلة، دب الرعب في قلوب اليهود وتسرب الخوف إلى أنفسهم، فأعلنوا استسلامهم، وبعد شد وجذب حكم فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حليفهم سعد بن معاذ زعيم الأوس، فحكم عليهم بقتل الرجال وسبي النساء وتقسيم الأموال ٢.

وبهزيمة بني قريظة، يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد تخلص من التكتل اليهودي بالمدينة المنورة.

ظلت منطقة خيبر - على مر الصراع الإسلامي اليهودي - ملاذا آمنا، وملجأ مريحا لليهود الذين أجلاهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن المدينة. "ولما كانت خيبر هي وكرة الدس والتآمر ومركز الاستفزازات العسكرية ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هي الجديرة بالتفات المسلمين أولا" ٣.

وبسبب ذلك كله، راح الرسول صلى الله عليه وسلم ينتظر الفرصة المواتية لضرب هذا التجمع اليهودي الأخير، وعندما بلغ إلى مسمعه صلى الله عليه وسلم تجهز أهل خيبر لمهاجمته المدينة واستنفار باقي اليهود ضده، جهز عليه السلام جيشه، وسار به نحو حصون خيبر، وهو يعلم صلى الله عليه وسلم أن نتيجة المعركة ستغير موازين القوى من جديد، وربما ستحدث نكسة، تعيد لليهود قوتهم وسلطتهم. وبعد تنظيم الجيش الإسلامي، وبث روح البسالة في نفوس جنوده، شن المسلمون هجومهم، وراحت حصون اليهود تتداعى واحدا تلو الآخر، وبذلك انتصر المسلمون على اليهود انتصارا باهرا ٤.

وبسقوط خيبر والمواقع المجاورة تم تصفية آخر تجمع يهودي، لعب دوره في مواجهة الإسلام وخصومته، ووضع العوائق في طريقه، وحبك المؤامرات ضده، وقضى قضاء تاما على القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية لليهود الحجاز، وغدت كلمة الإسلام وحدها هي العليا في معظم مساحات الجزيرة العربية، وكبتت كل الجيوب التي كانت تشكل نقاط ضعف في جسد هذه الدولة التي يحيط بها الأعداء من كل مكان ٥.

ويذكر ابن سعد في طبقاته أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نشط في العام ٧ هـ في الكتابة إلى زعماء بقايا التجمعات اليهودية في أقصى الشمال لتجديد موقفها من الإسلام، فكتب إلى بني جنية بمقنا القريبة من أيلة وإلى

١ - راجع تفاصيل غزوة الأحزاب [الحندي] في: "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ٣٩٢/٢ وما بعدها، و"السيرة النبوية" لابن هشام: ١٢٩/٣ وما بعدها.

٢ - انظر تفاصيل غزوة بني قريظة: "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ٤٢٥/٢ و"السيرة النبوية" لابن هشام: ١٤٣/٣.

٣ - "الرحيق المختوم" لصفي الرحمن المباركفوري، ص: ٤٣٠.

٤ - انظر تفاصيل غزوة خيبر في: "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ٤٧٠/٢ وما بعدها و"السيرة النبوية" لابن هشام: ٢١٣/٣.

٥ - "دراسة في السيرة" لعلماد الدين خليل، ص: ٢٩١.

بني غاديا وبني عريض وإلى أهل جرباء وأذرح...^١ وبذلك تمكن عليه السلام من تحويل هذه التجمعات اليهودية إلى جماعات من المواطنين في الدولة الإسلامية، يؤدون الجزية مقابل التمتع بحماية الدولة الإسلامية، وعدلها وسماحتها.

^١ - انظر جزءا من هذه الكتابات في: "طبقات" ابن سعد: ٢٨/١ وما بعدها.

* المبحث الثاني: علاقة المسلمين بالنصارى.

المطلب الأول: نشأة هذه العلاقة.

إن علاقة المسلمين بالنصارى علاقة قديمة - كمثيلتها اليهودية - ترجع في بداياتها الأولى إلى الإرهاصات المتبقية في العهدين القديم والجديد، فقد تواتر الحديث عن رهبان النصارى وأحبار اليهود، "بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه لما تقارب من زمانه، أما الأحبار من يهود، والرهبان من نصارى فما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه" ١.

إن النصارى كانوا على علم بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى دراية بصفاته وعلامات نبوته، بل يعرفون حتى اسمه، فعن سهل مولى عتبة - وكان نصرانيا من أهل موسى، يتيما في حجر أهله وعمه - قال: "أخذت مصحفا لعمي، فقرأته حتى مرت بي ورقة فأنكرت كتابتها حيث مرت بي، ومسستها بيدي، فنظرت فإذا فصول الورقة ملصق بغراء، ففتقتها فوجدت فيها نعت محمد صلى الله عليه وسلم، أنه لا قصير ولا طويل، أبيض، ذو ضفيرتين، بين كتفيه خاتم، يكثر الاحتباء، ولا يقبل الصدقة، ويركب الحمار والبعير، ويحتلب الشاة ويلبس قميصا مرقوعا، ومن فعل ذلك فقد برئ من الكبر، وهو يفعل ذلك، وهو من ذرية إسماعيل اسمه: أحمد، فلما انتهيت إلى هذا جاء عمي، فلما رأى الورقة ضربني، وقال: مالك وفتح هذه الورقة وقرأتها؟ فقلت: فيها نعت النبي أحمد، فقال: إنه لم يأت بعد" ٢.

وقد تحدث راهب من عمورية إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه، الذي كان يبحث عن الحقيقة وهو يجوب أنحاء الأرض قائلا له: "إنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بحرتين بين كتفيه خاتم النبوة" ٣.

أضف إلى ذلك أن الأناجيل القديمة قد اعترفت صراحة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بل وذكرته باسمه وصفاته وأخلاقه، وقد جاء في إنجيل برنابا: "فلما كان الناس قد دعوني الله، وابن الله على أي كنت بريئا في العالم، أراد الله أن يهزأ الناس في هذا العالم بموت يهوذا، معتقدين أنني أنا الذي مت على الصليب، لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم الدينونة، وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله" ٤.

١ - "تهذيب سيرة ابن هشام" لعبد السلام هارون، ص: ٤٨.

٢ - "الطبقات" لابن سعد: ٨٢/١.

٣ - انظر بتفصيل لقصة إسلام سلمان الفارسي: "السيرة النبوية" لابن اسحاق: ١٣٤/١ وما بعدها.

٤ - "إنجيل برنابا" باب: ٢٢٠، ولمزيد من النصوص التي تؤكد بشارة الأناجيل برسالة محمد ينظر: "محمد بين التوراة والإنجيل والقرآن" لأحمد إبراهيم خليل، ص: ٤٣ إلى ٤٨.

وبالرغم من هذه الحقائق الدامغة، والبيانات الواضحة، فإن الكثير من النصارى شكوا في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، بل تحول شكهم هذا إلى استنكار وسخرية ومعارضة وقتال، ولكن كانت تظهر بين الفينة والأخرى بوارق صدق بينهم، تنير الطريق لباقي الحيارى من النصارى.

* المطلب الثاني: مميزات العلاقة بالنصارى في مكة والمدينة.

ويمكن أن نميز في علاقة المسلمين بالنصارى بين مرحلتين أساسيتين، اختلفتا اختلافا كثيرا من حيث الخصائص وطرق التعامل وهما: المرحلة المكية والمرحلة المدنية.

ففي العصر المكي كانت علاقة المسلمين بالنصارى علاقة متميزة، بالرغم من حادثة الإسلام في مكة، فكتب السيرة تحكي أنه كان بمكة عدد كبير من النصارى من مختلف الأصول، كما كانت لهم مقبرة فيها، "وهكذا يمكن أن يقال إن أهل الديانتين اليهود والنصارى في مكة، الذين واجهوا النبي محمدا صلى الله عليه وسلم عيانا وسمعوه، قد رأوا فيه من الأعلام والصفات النبوية ما هو متطابق بما هو مكتوب عندهم في أسفار التوراة والإنجيل، فقابلوا دعوته بترحاب وفرح، وشهدوا بصدقها وصدق التنزيل، وآمنوا بهما مع ما كانوا عليه من الضلال" ١.

ولتميز علاقة المسلمين بالنصارى في هذا العهد، "فقد قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه.. فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا دعاهم إلى الله عز وجل، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله، وآمنوا به، وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره" ٢.

ولم يجد المسلمون، حين اشتد عليهم الخناق بمكة، ملاذا آمنا سوى أرض الحبشة النصرانية، التي احتضن أهلها المسلمون وأكرموا وفادتهم، ورفض النجاشي تسليمهم إلى قريش حينما بعثت في طلبهم، بل أجرى مناظرة بين الفريقين، اتضح من خلالها صحة الإسلام وصدق رسوله عليه السلام وتطابق ما جاء به مع جوهر الديانة النصرانية، وكان ذلك دافعا له إلى اعتناق الإسلام والتصديق بنبوته محمد صلى الله عليه وسلم، وفي مقابل ذلك نجد المسلمين - وهم قلة مستضعفة في مكة - يهزم نأ الهزيمة الساحقة التي مني بها الروم المسيحيون على أيدي الفرس الوثنيين، ويصيبهم بحزن عميق إزاء الفرح الذي غمر قلوب مشركي قريش، لكن القرآن ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم ويشره بنصر قريب للنصارى على أعداءهم من الجوس، فتحقق النبوة القرآنية التي لا تخطف، فغمرت الفرحة قلوب المسلمين المضطهدين في مكة.

١ - "سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن" لمحمد عزت دروزة: ٣٤١/١.

٢ - "السيرة النبوية" لابن هشام: ٢٦/٢ و ٢٧.

أما العصر المدني فهو على خلاف العهد المكي: "غني بالروايات والأحداث التي تلقي ضوءاً شاملاً على العلاقات بين الطرفين، سيما أن الإسلام كان قد تمكن آنذاك من بناء دولته، التي تتجاوز في سياساتها، وعلاقاتها الحدود الإقليمية والقومية صوب العالم المحيط حيث تقبع الدولة البيزنطية وحلفاؤها العرب وهم جميعاً محسوبون على المعسكر النصراني" ١.

وفي بداية العهد المدني ساد نوع من الهدوء الحذر علاقة المسلمين بالنصارى، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم منهمكاً في تثبيت دعائم دولته الجديدة، وفي مجابهة وردع القوى الوثنية واليهودية، كما أن الامتداد الجغرافي للدولة الإسلامية لم يبلغ آنذاك الحد الذي يقلق نصارى الدولة البيزنطية، ويدفعهم إلى إثارة المشاكل ووضع العقبات في طريق دولة الإسلام، كما أنه "لم يكن في المدينة جالية [نصرانية] ذات شأن وكيان يمكن أن يقع بينهما وبين النبي والمسلمين صدام، وأن يصدر منها مواقف عملية مؤذية وخطرة كما كان شأن اليهود" ٢.

أضف إلى ذلك أن القرآن المدني كان ينزل متحدثاً عن النصارى وعقائدهم ومواقفهم، وكانت آياته أكثر وأصرح منها في القرآن المكي، "ولم تحتو حملات عنيفة قاسية عليهم، بل وصفتهم بأوصاف محبة إطلاقاً، مما يلهم أن الذين لقيهم النبي منهم في المدينة كانوا دمثي الأخلاق ليني الجانب، غير جانحين إلى عنف أو كيد" ٣.

وذلك مما يلهم أن الاتصال بين النبي صلى الله عليه وسلم والنصارى في العهد المدني كانت أوسع منها في العهد المكي، "كما يلهم أن المؤثرات التي كان يخضع لها النصارى الذين لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم واحتك بهم أكثر تنوعاً، وأن الذين لقيهم في العهد المكي كانوا أكثر تجرداً عن الهوى والرغبات المادية، وأكثر استعداداً بالتبعية للاستجابة إلى الدعوة والاندماج فيها" ٤.

وأما مواقفهم من دعوة الرسول عليه السلام لهم، فقد اختلفت حسب فئاتهم، وبيئاتهم، ومراكزهم، فمنهم من استجاب وأقبل على الإسلام خير إقبال واعتبر الإسلام امتداداً لديانته النصرانية، ومنهم من تمسك بنصرانيته وصرف وجهه عن الإسلام، ومنهم المجادل الشاق الصاد بعنف وتهجم عن سبيل الله، وكل هذه المواقف طبيعية، لأن الذين لقيهم النبي صلى الله عليه وسلم من النصارى أو اتصل بهم، كانوا مختلفين: فيهم البدو والحضر والنسك والزهاد المتجردون عن أعراض الدنيا الراغبون في الله وحقائقه، وفيهم أصحاب المركز والجاه ممن يخضعون لمؤثرات الدنيا وأعراضها، كما كان فيهم العوام السذج الذين يبتعون أسيادهم.

١ - "دراسة في السيرة" لعماد الدين خليل، ص: ٢٣٥.

٢ - "سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن" لمحمد عزت دروزة: ٢/٢٥٣.

٣ - نفس المصدر: ٢/٢٥٣.

٤ - نفس المصدر: ٢/٢١٢.

* المطلب الثالث: الصراع المسلح ضد النصارى.

لكن مع مرور الوقت، واتساع نفوذ دولة الإسلام شمالاً، وقرع أنباء انتصارات الرسول صلى الله عليه وسلم على المشركين واليهود أسماع النصارى، سيغير وجه العلاقة بين المسلمين والنصارى، حيث بدأ المعسكر البيزنطي النصراني يستشعر الخطر المحدق لدولة الإسلام، وعلى إثر ذلك بدأت بعض قبائل النصرانية القاطنة في "دومة الجندل" في أقصى الشمال تتحرك، وتتأهب لمباغمة المسلمين في المدينة وبمجرد بلوغ الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحرك بسرعة صوب الشمال في ألف من المسلمين، فتفرقت القبائل هاربة أمامه عليه السلام، ولم يلق بأساً أو كيداً من العدو ١.

وهذا يمكن اعتبار غزوة "دومة الجندل" هذه أول حلقة في سلسلة الصراع الحربي بين عالمي الإسلام والنصرانية ٢.

وبعد غزوة "دومة الجندل" بعام ونيف، أرسل الرسول عليه السلام سرية بقيادة عبد الرحمن بن عوف في شعبان من السنة السادسة لقتال كلب النصرانية في نفس المنطقة، وعلى إثر هذا التحرك أسلم أمير القبيلة: الأصبع بن عمرو الكلبي، واسلم معه كثير من قومه، بينما وافق الآخرون على دفع الجزية والبقاء على دينهم ٣.

وعلى إثر هذين الانتصارين، أدركت القوى النصرانية المختلفة حجم الدولة الإسلامية وقوتها وقدرتها على التحرك والمباغمة في جميع الاتجاهات، فاستكانت ومنعت تكرار محاولات استفزاز المسلمين أو حتى التفكير في غزوهم وحرهم، وبقي هذا الوضع بين الفريقين ردحا من الزمن، تمكن فيه الرسول عليه السلام من إكمال انتصاراته على الوثنية، وقضى فيه على آخر تكتل يهودي في الشمال خاصة في خيبر.

وعلى إثر ذلك دخل الإسلام مرحلة جديدة اتسمت بالقوة ووسط النفوذ، بعد الإجهاز على الوثنية، واليهودية والحد من كيدهما، فكاتب عليه السلام ملوك عظماء الدول المجاورة، والحق أن العالم النصراني قد حظي بالقسط الأوفر من هذه الكتابات النبوية، "ربما لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أدرك أن الوشائج التي تربط الإسلام بهذه الجبهة، باعتبارها تنتمي إلى دين سماوي تنص مصادره الدينية على نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ستقودهم إلى تفهم دعوته التي انطلق بها فراءه إلى ملوك وحكام هذا والمعسكر فضلا عن قربه الجغرافي من شبه الجزيرة" ٤.

وفي أواخر السنة السادسة حين رجع عليه السلام من الحديبية، كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، واختار من أصحابه رسلاً لهم معرفة وخبرة، وهكذا أرسل دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل، وحاطب بن أبي بلتعة إلى

١ - راجع تفاصيل غزوة: دومة الجندل في: "السيرة النبوية" لابن اسحاق ٣٩٢/٢ و"زاد المعاد" لابن القيم: ٢١٨/٢.

٢ - "دراسة في السيرة النبوية" لعلماد الدين خليل، ص: ٢٣٧.

٣ - انظر تفاصيل أكثر عن هذه السرية في: "الطبقات" لابن سعد: ٦٤/٢ و"زاد المعاد" لابن القيم: ٢٣٢/٢.

٤ - "دراسة في السيرة" لعلماد الدين خليل، ص: ٢٣٨.

المقوقس حاكم مصر، وعمر بن أمية الضمري إلى النجاشي حاكم الحبشة، وشجاع بن وهب الأسدي إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم دمشق^١.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يهدف من وراء تلك المكاتبات، إلى إثبات عالمية الإسلام، فدين الإسلام ليس خاصا بالعرب وحدهم، ولكنه رسالة الله إلى الإنسان، كيفما كان وحيشما وجد، كما كانت رسائله عليه السلام تحرير الشعوب بضممان حريتها في اختيار دينها بعيدا عن الإكراه والتبعية، وجاءت هذه الرسائل النبوية بمثابة حملة دعائية عالمية للإسلام، وللتعريف به على نطاق واسع جدا، وقد تحقق ذلك فأصبح الإسلام حديث الناس في جميع الأمصار والأعصار. "ولقد كانت سفارات الرسول صلى الله عليه وسلم وكتبه عملا بديعا من أعمال الدبلوماسية، بل كانت أول عمل قام به الإسلام في هذا الميدان، بم يذهب عبثا كما رأينا، ولا ريب أن النبي عليه السلام لم يكن يتوقع أن يلي لأولئك الملوك الأقوياء دعوته وهو ما يزال يكافح في بثها بين قومه وعشيرته"^٢.

وبجلول السنة الثامنة للهجرة، كان لزاما على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ موقفا حاسما إزاء القبائل العربية النصرانية الموالية للبيزنطيين، بعد موقفهم الغادر والمتمثل في قتل مبعوثه عليه السلام: الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى على يد شرحبيل بن عمرو الغساني في مؤتة. "وكان قتل الرسل والسفراء من أشنع الجرائم، يساوي أو يزيد على إعلان الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل"^٣.

وهذه المعركة أكبر لقاء مُثخِن، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي مقدمة وتمهيد لفتوح بلدان النصارى، وقعت في جمادى الأولى من سنة ثمانية للهجرة^٤.

وقد اختلفت الروايات كثيرا فيما آل إليه أمر هذه المعركة، ويظهر بعد النظر في جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح في الصمود أمام جيش الرومان، حتى ينجح في الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة، فلما أصبح اليوم الثاني، غير أوضاع الجيش وعبأه من جديد، فجعل مقدمته ساقية وميمينته مسيرة، فلما رأهم الأعداء أنكروا حالهم وقولوا: جاءهم مدد، فرعبوا، وهكذا انسحب المسلمون دون متابعة أو مطاردة من طرف الرومان رغم كثرة عددهم حوالي مائتي ألف مقاتل^٥.

١ - راجع رسائل الرسول إلى هؤلاء وغيرهم في: "زاد المعاد" لابن القيم: ٤٤٧/٢ و"مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة" ل محمد حميد الله، ص: ٩٩ وما بعدها.

٢ - "مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام" ل محمد عبد الله عنان، ص: ٢٠٨.

٣ - "زاد المعاد" لابن القيم الجوزية: ١٥٥/٢.

٤ - "الرحيق المختوم" الصفي الرحمن المباركفوري، ص: ٤٥٩.

٥ - انظر تفاصيل غزوة مؤتة في "مغازي الواقدي": ٧٦٤/٢ و"السيرة النبوية" لابن اسحاق: ٥٠٤/٢.

ولم يمض شهر واحد على غزوة مؤتة حتى بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أن جمعا من قضاة تحالفوا مع الرومان لمهاجمة قبائل بلي وعذرة وبلقين الموالية للمسلمين، وتعرف هذه السرية "بذات السلاسل" وقد نجح المسلمون فيها من كسر شوكة قضاة والمتحالفين معها، فقتل منهم عدد كبيرا، بينما فر الآخرون وتفرقوا في البلاد ١.

بعد عودة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة في أواخر السنة الثامنة للهجرة، وفي أعقاب فتحه مكة وانتصاره في حنين بلغته أنباء خطيرة عن تحركات واستعدادات الروم وحلفائهم من العرب القيام بها ضد الدولة الإسلامية قبل أن يشتد ساعدها وتتفرد في قيادة الجزيرة العربية، وتشكل خطرا حاسما على الوجود البيزنطي في بلاد الشام، "ولما قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم الموقف أعلن في الصحابة أن يتجهزوا للقتال، وبعث إلى القبائل من العرب، وإلى أهل مكة يستنفرهم... ولكنه نظرا إلى خطورة الموقف وإلى شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان وجلي للناس أمرهم، ليتأهبوا أهبة كاملة وحضهم على الجهاد، ونزلت قطعة من سورة جراءة تثيرهم على الجلال، وتحثهم على القتال، ورغبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في بذل الصدقات، وإنفاق كرائم الأموال في سبيل الله" ٢.

وتحرك الجيش الإسلامي نحو تبوك وقوامه ثلاثون ألف مقاتل في ظروف صعبة للغاية، ولما وصلوا، عسكر الرسول صلى الله عليه وسلم في تبوك، وهو مستعد للقاء العدو، ولكن الرومان لما سمعوا بزحف المسلمين أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا في البلاد ٣.

وعلى إثر ذلك أخذ الرسول عليه السلام يتصل بزعماء القبائل النصرانية المنتشرة في المنطقة، ويتلقى سفاراتهم ويعقد معهم معاهدات الصلح والتعاون، ويقطع بذلك ولاءهم للدولة البيزنطية، ويحولهم إلى مواطنين وحلفاء للدولة الإسلامية الجديدة ٤. وكان ممن جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك يوحنا بن رؤية صاحب أيلة حيث صالح الرسول عليه السلام ووافق على دفع الجزية، كما جاءه أهل جرباء وأذرح وأعطوه الجزية. وبذلك أيقنت القبائل التي كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه، فانقلبت لصالح المسلمين، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية، وحقق الرسول عليه السلام انتصارا ساحقا على الجبهة النصرانية لا يقل أهمية عن نصره على الوثنية واليهودية ٥.

١ - انظر تفاصيل أكثر عن سرية "ذات السلاسل" في: "مغازي" الواقدي: ٧٧٠/٢ و"البداية والنهاية" لابن كثير: ٢٧٣/٤.

٢ - "الرحيق المختوم" لصفي الرحمن المباركفوري، ص: ٥١٢.

٣ - "زاد المعاد" لابن القيم الجوزية: ٣٦٢/٢.

٤ - "دراسة في السيرة" لعماد الدين خليل، ص: ٢٥٣.

٥ - راجع تفاصيل غزوة تبوك في: "مغازي" الواقدي: ٩٩٠/٣ و"البداية والنهاية" لابن كثير: ٩/٤.

الفصل الرابع: نماذج من علاقة المسلمين بغير المسلمين في السيرة النبوية:

المبحث الأول: علاقة المسلمين بأهل الذمة:

- يقول ابن القيم الجوزية: "الكفار إما أهل حرب، وإما أهل عهد، وأهل العهد ثلاثة أصناف:

١- أهل ذمة.

٢- أهل هدنة.

٣- أهل أمان.

وقد عقد الفقهاء لكل صنف بابا، فقالوا: باب الهدنة وباب الأمان وباب عقد الذمة. ولفظ الذمة والعهد يتناول هؤلاء كلهم في الأصل، وكذلك لفظ الصلح، فإن الذمة من جنس العهد والعقد" ١.

وسأبين علاقة المسلمين بأهل الذمة وفق المنهجية التالية:

المطلب الأول: تعريف الذمة لغة واصطلاحاً

- الذمة لغة: الذمة بكسر الهمزة وفتح الميم المشددتين وردت في كتب بمعان: العهد والعقد، والكفالة والضمان، والأمان والحق والحرمة.

ففي معنى العهد، فالذمة بالكسر: العهد ورجل ذمي معناه: رجل له عهد أو عقد، ومن ذلك يسمى أهل الذمة: أهل العهد أو أهل العقد وهم المعاهدون من النصارى واليهود وغيرهم ممن يقيمون في دار الإسلام ٢. قال تعالى: {لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة} [التوبة: ١٠] أي عهداً.

وجاءت كلمة ذمة بمعنى: كفالة وضمان والجمع: ذمام، ومنه قول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: "ذمتي رهينة وأنا به زعيم" أي: ضماني وعهدي رهن في الوفاء به ٣.

كما جاءت بمعنى: أمان أي الذمة: الأمان، ولهذا سمي المعاهد ذمياً، لأنه أعطي الأمان على ماله وعرضه ودينه ٤. وجاء في الحديث الشريف: "يسعى بذمتهم أدناهم" ٥، من أذمه يذمه إذا جعل له عهداً، وقد فسر الفقهاء: "ذمتهم" بمعنى الأمان ٦.

١ - "أحكام أهل الذمة" لابن القيم الجوزية: ٤٣/٢.

٢ - "تاج العروس من جواهر القاموس" للزبيدي: ٣٠١/٨.

٣ - نفس المصدر: ٣٠١/٨.

٤ - "لسان العرب" لابن منظور: ١١١/١٥.

٥ - أخرجه الحاكم في المستدرک على الصحيحين: ١٤١/٢.

٦ - "كشاف القناع" البهوتي: ١١٦/٣.

وقد تأتي كلمة الذمة بمعنى: الحق والحرمة، يقال فلان له ذمة: أي حق والذمامة: الحق والذمام الحرمة" ١.

وعلى هذا يمكن القول بأن عقد الذمة عقد بمقتضاه يصير غير المسلم في ذمة المسلمين أي في عهدهم وأمانهم على وجه التأييد وله الإقامة في دار الإسلام على وجه الدوام" ٢. فهذه الذمة تعطي أهلها من غير المسلمين ما يطلق عليه مسمى "الجنسية" في عرف عصرنا الحاضر التي تعطيها الدولة لرعاياها، فيكتسبون بذلك حقوق المواطنين، ويلتزمون بواجباتهم" ٣.

*الذمة في الاصطلاح:

عرفت بتعريفات كثيرة، من بينها:

"الذمة عقد معاهدة سلم دائمة مع غير المسلمين للاستيطان في دار الإسلام، يعيشون في ظل الحكم الإسلامي يؤدون الجزية، ولهم ذمة مؤبدة على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم قبل المسلمين" ٤. ذلك أن قبول الجزية تثبت معه عصمة الأنفس والأعراض" ٥.

وما الجزية إلا ضريبة نقدية مفروضة على الأشخاص القادرين غير المسلمين، وتكون مقدرة وفقا لحالة كل واحد منهم الاقتصادية، مقابل حمايتهم والمحافظة عليهم" ٦.

وقد اختلف فقهاء الإسلام في تحديد اصطلاح "الذمة":

فعرفها المالكية بأنها: "مال يضره الإمام على كافر ذكر حر مكلف قادر مخالط يصح سباؤه، لم يعتقه مسلم لاستقراره آمنا بغير الحجاز واليمن" ٧.

وعرفها الشافعية بأنها: "عقد غير مؤقت بل هو أبدي يسري على من عقده مع المسلمين وعلى ذرياته من بعده" ٨ وعرفوا الذمي بقولهم: "كل كتابي ونحوه عاقل بالغ حر ذكر متأهب للقتال قادر على أداء الجزية" ٩.

١ - "تاج العروس" للزبيدي: ٣٠١/٨ و"لسان العرب" لابن منظور: ١١١/١٥.

٢ - "أحكام الذميين والمستأمنين" لزيدان: ٤٧٥/٢.

٣ - "غير المسلمين في المجتمع الإسلامي" للقرضاوي، ص: ٧.

٤ - "العلاقات الدولية" لوهبة الزحيلي، ص: ١٤٩.

٥ - "بدائع الصنائع" للكاساني: ٤٣٣٠/٩.

٦ - "الدعوة إلى الإسلام" لأرنولد، ص: ٧٨.

٧ - "الشرح الصغير على أقرب المسالك" للدردير: ٣٠٨/٢.

٨ - "مغني المحتاج" للشرييني: ٢٤٣/٤.

٩ - "الوجيز في فقه مذهب الإمام الشافعي" للغزالي: ١٩٨/٢.

وعرف صاحب بدائع الصنائع من الحنفية عقد الذمة: "بأنه الأمان المؤبد"^١. والذمي عند الحنفية: "كل كافر - ماعدا عبدة الأوثان من العرب والمرتدين - يقر في ديار الإسلام آمنا على التأييد بشرط بذل الجزية"^٢.
وأما الحنابلة فعرفوا عقد الذمة ب: "إقرار بعض الكفار على كفرهم بشرط بذل الجزية والتزام أحكام الملة"^٣ ومن هذه التعريفات، يمكن القول بأن أهل الذمة أو الذميين هم المستوطنون من غير المسلمين، العقلاء الأحرار الذكور القادرون على حمل السلاح والقتال، الذين ارتضوا بمحض إرادتهم العيش في دار الإسلام، ولهم ذمة مؤبدة على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، مع بقائهم على دينهم وممارستهم لشعائهم، وقد تعهدوا في مقابل ذلك بدفع مبلغ من المال يتناسب مع قدرتهم المالية دون تعسف أو شطط، وهو ما يطلق عليه اسم: "الجزية"، مع التزامهم باحترام الإسلام ونظامه العام، وإطلاق هذا اللقب عليهم إشارة إلى أن لهم عهد الله وعهد رسوله صلى الله عليه وسلم وعهد جماعة المسلمين: أن يعيشوا في حماية الإسلام، وفي كنف المسلمين آمنين مطمئنين، وقد عاهدوا المسلمين على أن يجري عليهم حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ماداموا مقيمين في دار الإسلام. يقول شهاب الدين القرافي: "فمن اعتدى عليهم، ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذمة دين الإسلام"^٤.

* المطلب الثاني: مشروعية عقد الذمة والحكمة منه.

ثبتت مشروعية عقد الذمة بالقرآن الكريم والسنة النبوية وعمل الصحابة وإجماع أهل العلم، وفيما يلي موجز لبعض الأدلة على مشروعية عقد الذمة:

فمن القرآن الكريم: يستدل على مشروعية عقد الذمة قوله تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} [التوبة: ٢٩].

ففي هذه الآية جعل الله قتال الكفار إلى غاية هي إعطاء الجزية، وهذا يعني أن نرفضها عليهم، وأن نطلبها منهم، ونكف عنهم إذا بذلوا لنا، والجزية بكسر الجيم مأخوذة من المجازة^٥. وهي تطلق على المال المدفوع، كما تطلق

١ - "بدائع الصنائع" للكاساني: ٤٣٢٧/٩.

٢ - "أحكام القرآن" للجصاص: ٩١/٣.

٣ - "كشاف القناع" للبهوتي: ١١٦/٣.

٤ - "الفروق" للقرافي: ١٤/٣.

٥ - "الحاشية على الشرح الصغير" للصاوي: ٣٠٨/٢.

على عقد الذمة، والمراد من إعطاء الجزية في الآية: القبول والالتزام، أما تأويل قوله تعالى: {عن يد} فللمفسرين فيها أقوال كثيرة، منها: عن يد مؤاتية قادرة غير ممتنعة، لأن الانقياد والطاعة من موجبات عقد الذمة" ١ .
وأما معنى الصغار في الآية، فالراجح أنه ما يتفق مع روح الإسلام من جريان أحكام الإسلام عليهم، وخضوعهم لسلطان الدولة الإسلامية" ٢ .

أما الدليل من السنة، فهناك العديد من الأحاديث والشواهد على مشروعية عقد الذمة منها:

١- ما رواه سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصة بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: "اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله... فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك، فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم...." ٣ . ووجه الدلالة في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: "فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم" وهو قول صريح في قبول الجزية وإنهاء القتال.

٢- ما قاله المغيرة بن شعبه رضي الله عنه لعامل كسرى في وقعة نهاوند: "أمرنا نبينا رسول ربنا صلى الله عليه وسلم أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية" ٤ . وفي الحديث بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بقتال الكفار حتى يؤدوا الجزية إذا لم يسلموا.

٣- ما ثبت في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخذ الجزية من يهود تيماء ومن مجوس هجر، كما أخذها من نصارى نجران وغيرهم ٥ .

وقد قام الإجماع على مشروعية عقد الذمة وأخذ الجزية من غير المسلمين، واتفقوا على جواز أخذها من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى أو من له شبهة كتاب كالمجوس ٦ وقد أخذها الخلفاء الراشدون الأربعة ومن جاء بعدهم ٧ .

١ - "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي: ١١٥/٨ .

٢ - "المخلى" لابن حزم: ٥٦٤/٧ .

٣ - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب رقم ٣٢: الجهاد والسير، باب رقم ٠٢: تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها، رقم الحديث ٤٥٣٨، ٦٦٦/٣ و ٦٦٧ .

٤ - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب رقم ٥٨: الجزية والموادعة، باب رقم ٠١: الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب، رقم الحديث ٣١٥٩، ٥٦١/٢ و ٥٦٢ .

٥ - "زاد المعاد" لابن القيم الجوزية ١٥١/٣ .

٦ - "الأمم" للإمام الشافعي: ١٩٧/٤ .

٧ - "الخراج" لأبي يوسف، ص: ٨٧ .

*الحكمة من مشروعية عقد الذمة:

قصد الإسلام من تشريع عقد الذمة إلى حكم كثيرة منها: أن يترك الحربي القتال برضائه، من أجل التعايش السلمي مع المسلمين، والعيش المشترك بينهم، وحتى تعطى له فرصة التعرف على محاسن الإسلام وأخلاق المسلمين وصفاتهم وحسن تعاملهم، فيكون ذلك داعيا إلى تحبيب الإسلام له والدخول فيه عن قناعة.

كما أن الإسلام يهدف من وراء عقد الذمة إلى إظهار تسامح المسلمين مع غيرهم، حتى وإن خالفهم في العقيدة، إن الذميين في ظل الحكم الإسلامي يتمتعون بكامل حقوقهم، ويعيشون آمنين، مطمئنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ومعتقداتهم، يحرم شرعا إذا يتهم أو الإساءة إليهم "فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك، فقد ضيع ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة دين الإسلام" ١.

وليس عقد الذمة ذا صلة بالاستعمار - كما يتوهم بعض أعداء الإسلام - لأن نظام الإسلام يقوم على الحرية والإنسانية وبذل الحقوق لغير المسلمين، أما الاستعمار فيقوم على الاستعباد وسلب الحريات واستباحة أموال المغلوب، فنظرة إلى كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نجران، توضح مدى التسامح مع الذميين من قبل المسلمين، حيث ورد في النص: "... لنجران وحاشيتها جورا الله، وذمة محمد النبي رسول الله، وعلى أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدتهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، ولا يغير أسقف عن أسقفيته، ولا راهب عن رهبانته ولا كاهن عن كهانته... ٢".

وفي ذلك رد على من يتهم الإسلام بالتعصب ورفض الآخر، فالإسلام أثبت عمليا قدرته على التعايش مع الأديان الأخرى وأهلها في أمان وسلام...

أين هذا مما يفعله غير المسلمين بالمسلمين اليوم، وفي بلدان شتى من العالم، حيث يمارسون ضدهم أبشع وسائل الإجرام والإبادة، لإكراههم على ترك دينهم، وتغريب أبنائهم والقضاء على هويتهم لا لذنب ارتكبه، إلا أنهم مسلمون، وخير شاهد على ذلك في عصرنا الحالي دولة بورما، وما تقترفه أيدي البوذيين والرهبان في حق المسلمين.

* المطلب الثالث: نماذج تطبيقية لعقد الذمة في السيرة النبوية.

عاش الذميون عقد الذمة واقعا معيشا في حياتهم، في ظل حكم الإسلام، وتمتعوا بكامل حقوقهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية... وأحداث السيرة النبوية خير شاهد على ذلك، فقد ضمن الرسول صلى الله عليه وسلم

١ - "الفروق" للقرافي: ١٤/٣.

٢ - "مجموعة الوثائق السياسية" لمحمد حميد الله، ص: ١٧٥ و ١٧٦.

حقوق الذميين وأرخها في صحائف خالدة، تثبت سماحة المسلمين مع غيرهم بأهل الذمة وبالتحذير من التعرض لهم بشيء من الغدر أو الإساءة، قال صلى الله عليه وسلم: "ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة" ١.

وذكر صاحب كتاب "الخراج": "أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما قرب أجله أوصى من يلي الخلافة بعده، وهو على فراش الموت بقوله: "أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم" ٢.

ومن الأمثلة البارزة لعقود الذمة في السيرة النبوية، والتي تحدد حقوق غير المسلمين الذميين: صلح النبي صلى الله عليه وسلم مع النصارى بجران، و صلح عمر بن الخطاب مع أهل إيلياء [بيت المقدس]، وفيما يلي عرض لجزء من هذين العقدين:

جاء في عقد الذمة لأهل بجران: "... أن لنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وعشيرتهم وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم، لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيتها، ولا كاهن من كهانته... ولا يطاء أرضهم جيش ما لم يحدثوا حدثا أو يأكلوا ربا... ٣".

يدل النص على أن الصلح تم بين وحدتين هما: دولة الإسلام بالمدينة المنورة ونصارى بجران، وقد تضمن النص التزام النصارى بان يؤدوا الجزية وبيقوا على دينهم، وفي مقابل ذلك ضمن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كافة الضمانات التي تضمن لهم الأمن والسلم والاطمئنان على أنفسهم وأموالهم وأرضهم وملتهم... والعقد الثاني عقده عمر بن الخطاب مع أهل إيلياء وجاء فيه: "... هذا ما أعطى عبد الله، عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمهم وبرئيتهم وسائر ملتهم، أنه لا تسكن كناسهم ولا تخدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها... ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم... وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية... ٤".

ويعد هذا العقد أيضا مثالا رائعا من أمثلة حفظ حقوق غير المسلمين واحترام حرياتهم، وتأمينهم والحفاظ عليهم ضد أي عدوان داخلي أو خارجي، مقابل أداء الجزية.

١ - رواه أبو داود في سننه: كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة: ٤٣٧/٣.

٢ - "الخراج" لأبي يوسف، ص: ١٢٥.

٣ - "مجموعة الوثائق السياسية" لمحمد حميد الله، ص: ١٧٥ وما بعدها.

٤ - "تاريخ الأمم والملوك" للطبري: ٦٠٩/٣.

* المبحث الثاني: علاقة المسلمين بأهل العهد:

وسأفصل الحديث عن هذه العلاقة من خلال ما يلي:

* المطلب الأول: تعريف العهد لغة واصطلاحاً:

-تعريف العهد لغة: قال ابن فارس: "العين والهاء والذال: أصل هذا الباب - عندنا - دال على معنى واحد، وقد أوماً إليه الخليل قال: أصله الاحتفاظ بالشيء، وإحداث العهد به" ١.

والفاعل: معاهد بالبناء للفاعل والمفعول، لأن الفعل من اثنين، فكل واحد يفعل بصاحبه مثل ما يفعله صاحبه به، فكل منهما في المعنى: فاعل ومفعول، وهذا كما يقال: مكاتب ومكاتب، ومضارب ومضارب، وما أشبه ذلك ٢.

ويتفرغ معنى هذه الكلمة إلى معان متعددة منها: توحيد الله، والأمان، واليمين، والموثق والذمة، والحفاظ، والوصية، والتقدم إلى المرء في شيء، والوفاء، ورعاية الحرمة، والالتقاء، والزمان، والضمان، والمعرفة ٣.

والعهدة: بالضم: كتاب الحلف، وكتاب الشراء، والضعف في الخط، وفي العقل، والرجعة، تقول: لا عهدة لي أي: لا رجعة لي ٤. وكل ما عوهد الله عليه، وكل ما بين العباد من الموثيق، فهو عهد ٥.

والمعاهدة: المعاهدة ٦ والعهد يأتي بمعنى الهدنة: قال ابن فارس: "الهاء والذال والنون أصيل يدل على سكن واستقامة" ٧.

وقال الأزهري: أصل الهدنة: السكون بعد التهيج ٨.

وهي من هدن يهدن هدونا: سكن ومن هذا المعنى: الرجل الهدان أي: الخامل الذي لا حراك به، وهدنت: إذا سكنت فلم تتحرك، وهدنه أي سكنه ومنه قولهم: هدنت المرأة صبيها: إذا سكنته بكلامها ليرقد، وتهدين المرأة

١ - "المقاييس في اللغة" لابن فارس: باب العين والهاء وما يثلاثهما، ص: ٧١٣.

٢ - "المصباح المنير" للفيومي: مادة عهد.

٣ - ينظر: "تاج اللغة وصحاح العربية" للجوهري: باب الدال، فصل العين: ٥١٥/٢. و"القاموس المحيط" للفيزبادي: باب الدال فصل العين: ٣٨٧ و٣٨٨ و"لسان العرب" لابن منظور: ٩١٤/٢ و٩١٥.

٤ - "القاموس المحيط" للفيروز أبادي: باب الدال: فصل العين: ٣٨٧ و٣٨٨.

٥ - "لسان العرب" لابن منظور: ٩١٤/٢.

٦ - "المصباح المنير" للفيومي: مادة عهد.

٧ - "المقاييس في اللغة" لابن فارس: باب الهاء والذال وما يثلاثهما، ص: ١٠٦٦.

٨ - "تهذيب اللغة" للأزهري: ٢٠٤/٦.

لصبيها: تسكيتها له بكلام، إذا أردت إنامته، وهدنت الرجل: سكتته... وهادته: صالحه، والاسم منه الهدنة، ويقال: للصلح بعد القتال: هدنة ١.

- تعريف العهد اصطلاحاً:

إذا تصفحنا جملة من الكتب الفقهية والحديثية المعتبرة، نلاحظ أن الفقهاء يطلقون "العهد" أو "المعاهدة" على نوع من أنواع المعاهدات وهو: معاهدة الهدنة والموادعة ٢، مع أنهم بحثوا أنواعاً أخرى من العهود: كالأمان، والذمة، والجوار، وما يعقده أهل العدل مع البغاة، وما يعقده البغاة مع أهل الذمة... ولعل السبب في ذلك - والله أعلم - أنها النوع الذي كان يطبق في عهدهم كثيراً، لكن هناك من العلماء من استعمل العهد على غير الهدنة ومنهم: الراغب الأصفهاني الذي يعرف المعاهد بأنه: "في عرف الشرع يختص بمن يدخل من الكفار في عهد المسلمين، وكذلك ذو العهد" ٣.

أما ابن الأثير فيعرف المعاهد بقوله: "المعاهد من بينك وبينه عهد، وأكثر ما يطلق في الحديث على أهل الذمة، وقد يطلق على غيرهم من الكفار إذا صولحوا على ترك الحرب مدة ما" ٤.

وابن القيم الجوزية الذي يقسم الكفار إلى: "أهل حرب، وإما أهل عهد، وأهل العهد ثلاثة أصناف: أهل ذمة، وأهل هدنة، وأهل أمان، وقد عقد الفقهاء لكل صنف باباً، فقالوا: باب الهدنة، باب الأمان، باب عقد الذمة، ولفظ [الذمة والعهد] يتناول هؤلاء كلهم في الأصل" ٥.

ومن هنا عرف عدد من المعاصرين العهد أو المعاهدة بتعريفات عامة، تدخل تحتها جميع العهود، والمواثيق، ومن هذه التعريفات ما يلي:

١- أن المعاهدة أو العهد: "التزام بين اثنين أو أكثر، على شيء يعامل كل واحد من الجانبين الآخر به" ٦.

٢- أنها: "عقد العهد بين فريقين على شروط يلتزمونها" ٧.

٣- أنها: "عقد يقوم الفرد أو الدولة بعقدة مع طرف آخر" ٨.

١ - تهذيب اللغة: للأزهري: ٢٠٤/٦.

٢ - ينظر: "بدائع الصنائع" للكاساني: ٤٣٢٥/٩ و"شرح حدود ابن عرفة" للرصاع: ٢٢٦/١ و"المغني" لابن قدامة: ١٥٤/١٣. و"مغني المحتاج" للشربيني: ٢٦٠/٤.

٣ - "مفردات ألفاظ القرآن" للراغب، ص: ٥٩٢.

٤ - "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير: ٣٢٥/٣.

٥ - "أحكام أهل الذمة" لابن القيم الجوزية: ٤٤/٢.

٦ - "التحرير والتنوير" للطاهر بن عاشور، ص: ١٧ و١٨.

٧ - "تفسير المراغي" لأحمد بن مصطفى المراغي: ١٥/٤.

وهذه التعريف متقاربة فيما بينها، أسلمها: أولها وآخرها.

وبناء على ما تقدم، يمكن أن نصوغ تعريفا للعهد او المعاهدة بأنها: "كل اتفاق يعقده الإمام أو من ينوب عنه مع الحربيين أو الذميين أو الخارجين عن ولايته من المسلمين، لأجل علاقة مشروعة تذكر فيها قواعد الاتفاق وشروطه".

أما الهدنة - المرادفة للعهد - فقد عرفت تعريفات مختلفة من حيث اللفظ، متفقة من حيث المعنى، وتدور كلها حول الصلح وترك القتال ومنها:

الهدنة: "الصلح على ترك القتال" ٢.

وأنها: "عقد المسلم مع الحربي على المسالمة - المتاركة - مدة ليس هو فيها تحت حكم الإسلام" ٣.

وأنها: "الصلح على ترك القتال فيه مدة قصيرة" ٤.

وأنها: "مصالحة أهل الحرب على ترك القتال مدة معينة بعوض أو غيره سواء فيهم من يقر على دينه، ومن لم يقر" ٥.

وأنها: "أن يعقد الإمام أو نائبه لأهل الحرب عقدا على ترك القتال مدة بعوض أو غيره" ٦.

وبناء على ما تقدم يمكن أن نصوغ تعريفا للهدنة ونقول بأنها: "معاقدة نبي الإمام أو من ينوب عنه وبين أهل الحرب على المسالمة مدة معلومة أو مطلقة، ولو لم يدخل أحد منهم تحت حكم دار الإسلام".

١ - "الإسلام والعلاقات الدولية" لمحمد الصادق عفيفي، ص: ٢٥٦.

٢ - "بدائع الصنائع" للكاساني: ٤٣٢٤/٩.

٣ - شرح حدود ابن عرفة" للرصاع: ٢٢٦/١.

٤ - "أسهل المدارك شرح إرشاد السالك إلى فقه مالك" للكشناوي: ١٧/٢ و ١٨.

٥ - "مغني المحتاج" للشرييني: ٢٦٠/٤.

٦ - "المغني" لابن قدامة: ٥٠٩/١٠.

* المطلب الثاني: مشروعية عقد العهد مع غير المسلمين.

اتفق الفقهاء على مشروعية عقد العهد مع الكفار، ومصالحتهم ومسالمتهم من حيث الأصل ١.

وقد ذكر الفقهاء أدلة مشروعية العهد أو الهدنة وما يندرج تحتها من معاهدات وهي كثيرة منها: قوله تعالى: {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم} [الأنفال: ٦١] والآية أصل في مشروعية العهد ومعناها: "أنهم إن مالوا إلى المسالمة، وهي طلب السلامة من الحرب، فسالمهم واقبل ذلك منهم" ٢.

وفي هذه الآية: الإذن بمهادنة الكفار ومسالمتهم عند الحاجة إلى ذلك، وبه دلت الآية على مشروعية عقد الإمام الهدنة مع الكفار ٣.

ومن الأدلة على مشروعية عقد العهد كذلك قوله تعالى: {براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين} إلى قوله تعالى: {فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم، إن الله يحب المتقين} [التوبة ٠٤] فالآية أصل في مشروعية عقد الهدنة للكفار ٤. إذ أمر الله المسلمين بإتمام العهد إلى أجله. وقد عقد النبي صلى الله عليه وسلم الكثير من معاهدات الصلح مع الكفار ومن ذلك صلح الحديبية المشهور الذي صلح فيه النبي صلى الله عليه وسلم قريشا ومن معها، ففيه: "الإباحة لإمام المسلمين مهادنة المشركين إلى مدة معلومة، على غير مال يأخذه منهم، إذا كان ذلك على النظر للمسلمين" ٥.

وقد أجمع العلماء على مشروعية مصالحة الكفار عند الحاجة إليها، وقد حكى هذا الإجماع غير واحد من العلماء، منهم الإمام النووي إذ قال: "... وفي هذه الأحاديث [يعني أحاديث قصة الحديبية] دليل لجواز مصالحة الكفار، إذا كان فيها مصلحة، وهو مجمع عليه عند الحاجة" ٦.

-
- ١ - ينظر مثلا: "الخراج" لأبي يوسف، ص: ٢٠٧ و"شرح السير الكبير" للشيباني: ١٦٩٨/٥ و"بدائع الصنائع" للكاساني: ٤٣٢٤/٩
 - ٢ - "أحكام القرآن" للخصاص: ٦٩/٣.
 - ٣ - "المغني" لابن قدامة: ١٥٤/١٣.
 - ٤ - "الأم" للشافعي: ١٩٠/٤.
 - ٥ - نفس المصدر: ١٩١/٤.
 - ٦ - "شرح صحيح مسلم" للنووي: ١٤٣/١٢.

* المطلب الثالث: نماذج تطبيقية لعقد العهد في السيرة النبوية.

عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم المعاهدات بينه وبين كل الطوائف غير المسلمة في عصره، فكان عليه السلام وفيما بكل ما عاهدهم عليه امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها﴾ [النحل: ٩١]، ويعلق ابن كثير على هذه الآية قائلاً: "وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الإيمان المؤكدة" ١.

وعلى هذه المبادئ، سارت حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل وربى أصحابه عليها، معلماً إياهم قيمة الوفاء بالعهد: "من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشد عقدة، ولا يجلها، حتى ينقضى أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء" ٢.

والوفاء بالعهود والمعاهدات واجب ديني يحاسب عليه المسلم يوم القيامة، وحول هذا المعنى يقول الشيخ محمود شلتوت: "الوفاء بالمعاهدة واجب ديني، يسأل عنه المسلم فيما بينه وبين الله، ويكون الإخلال بها غدراً وخيانة" ٣. وأحداث السيرة النبوية حبلى بكثير من المعاهدات الإسلامية مع غير المسلمين، ومنها:

١- معاهدته عليه السلام مع يهود المدينة:

عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع يهود المدينة بعد هجرته إليها مباشرة، وفي أوائل أيامه بها، مما يدل دلالة قاطعة على فكرة التعايش لدى المسلمين مع غيرهم، ورغبة الرسول صلى الله عليه وسلم في مسالمة غير المسلمين، "فصالح يهود المدينة، وكتب بينهم وبينه كتاب أمن، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة: بني قينقاع، بني النضير، وبني قريظة" ٤.

وقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون -رغم ما واجهوه من صعوبات بالغة ومكائد متكررة - على استمرار تطبيق بنود هذه المعاهدة، والمحافظة على علاقة الود والسلم مع اليهود، إلا أن هؤلاء أكثروا من مكائدهم للإسلام ولرسوله وللمسلمين، فنقضوا عهودهم وخانوا موآثيقهم مع الرسول عليه السلام فحاربهم صلى الله عليه وسلم وأجلأهم ٥.

١ - "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير: ٤/٥٩٨.

٢ - أخرجه أبو داود عن عمرو بن عبسة في سننه: كتاب الجهاد: باب: في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد، رقم الحديث: ٢٧٥٩.

٣ - الإسلام عقيدة وشريعة" لمحمود شلتوت، ص: ٤٥٧.

٤ - "زاد المعاد" لابن القيم الجوزية: ٢/١٤٨.

٥ - قد فصلت الحديث عن صحيفة الرسول عليه السلام مع اليهود وشرح مضامينها، وبيان علاقة المسلمين باليهود في: الفصل الرابع: المحور الأول: علاقة المسلمين باليهود، من هذا البحث.

وأما معاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع يهود خيبر، فقد تمت بعد حربهم، التي لم يلجأ إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد تأكده من أنها أصبحت ملاذاً آمناً لمن يريد التخطيط لهدم الدولة الإسلامية، وتقويض بنائها، فكانت خيبر حصن اليهود الذين أجلاهم الرسول عليه السلام من المدينة، وبؤرة دس ومؤامرة وكيد للإسلام وأهله عن طريق تأليب المجتمع ضد المسلمين، فكان لا بد من تأديبهم، ومحاسبتهم على جرائمهم.

فخرج النبي صلى الله عليه وسلم في العام السابع من الهجرة لمحاربتهم، وبعد معارك عديدة، وحصار لحصونهم الواحد تلو الآخر، طلب اليهود أن ينزلوا على الصلح وأن يتفاوضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقبل عليه السلام ذلك منهم، فتم التصالح على حقن دمائهم، ودماء كل من في الحصون من المقاتلة والذرية والنساء، على أن يتركوا خلفهم الديار والأسلحة والأموال، ويخرجوا بلا شيء، كما اشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم في هذه المعاهدة شرطا مهما فقال: "وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنتم موثقي شيئا".^١ أي لو أن واحدا من اليهود، أخفى شيئا من الأموال أو من الذهب أو الفضة، فللرسول صلى الله عليه وسلم أن يقتله بهذا الإخفاء.

وقبل اليهود هذا الصلح، وبدءوا في الخروج من خيبر، وقد حقن الرسول صلى الله عليه وسلم دماءهم جميعا بهذا الصلح، وذلك رغم ما قدمت أيديهم من سوء، ولم يقتل منهم إلا من برزت خيانتته لهذا العهد كما وقع لكنانة بن أبي الحقيق.^٢

ولرغبة الرسول صلى الله عليه وسلم في التعايش مع الآخر، قبل عليه السلام بعرض اليهود، الذين طلبوا منه أن يزرعوا الأرض، وما يخرج منها يكون مناصفة مع المسلمين، ففي البخاري عن عبد الله بن عمر قال: "أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها".^٣

٢- معاهداته مع المشركين:

عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة معاهدات مع المشركين، سواء منهم من كان حول المدينة أو في مكة ذاتها، أما القبائل حول المدينة فمنها على سبيل المثال المعاهدة التي عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع بني

١ - "زاد المعاد" لابن القيم: ٢٨٣/٣.

٢ "السيرة النبوية" لابن كثير: ٣٧٤/٣.

٣ - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب رقم: ٦٤: المغازي: باب رقم: ٤٢: معاملة النبي أهل خيبر، رقم الحديث: ٤٥٤٨: ٣/٧٤٥.

ضمرة ١. "فوادته فيها بني ضمرة، وكان الذي وادعه منهم عليهم مخشى بن عمرو الضمري، وكان سيدهم في زمانه ذلك" ٢ وكانت هذه المواعدة في صفر من السنة الثانية للهجرة، وتعرف عند أهل السير بغزوة "ودان".

كما وادع عليه السلام "بني مدلج" والذين يعيشون في منطقة ينبع، وذلك في جمادى الأولى من السنة الثانية من الهجرة ٣. وفعل نفس الشيء مع قبائل "جهينة" وهي قبائل كبيرة تسكن في الشمال الغربي للمدينة المنورة ٤.

أما الصلح المشهور في التاريخ فهو الذي عقده صلى الله عليه وسلم مع قريش في الحديبية أواخر العام السادس للهجرة، ورغم معاناة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه من قريش لمدة قاربت تسعة عشر عاما، حيث تعرض عليه السلام وأصحابه للتعذيب والاضطهاد، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حريصا على الصلح مع مشركي قريش مما يدل على مدى مسامحته عليه السلام مع أعدائه، وحبه للسلام.

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة على رأس ألف وأربعمائة من الصحابة الكرام، لأداء مناسك العمرة، وساق أمامه المهدي ٥. ليثبت للجميع أن قصده العمرة وعند ذي الحليفة أحرم، وأحرم معه الصحابة وانطلقوا في التلبية طوال الطريق...

بما بلغ قريش الخبر أعلنت النفي العام في مكة، وخرجوا للقاء المسلمين، ووصل عليه السلام بالمعتمرين إلى الحديبية، وبعد مفاوضات وتبادل للسفراء والرسول، تم عقد صلح الحديبية، وكان مكتوبا وجاء فيه: "... وهذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وإنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم، دخل فيه..." ٦.

وكان هذا الصلح بمثابة فتح مبين للإسلام والمسلمين، كما كان نقضه من قريش سببا في فتح مكة ٧.

١ - قبيلة بني ضمرة: من القبائل العربية من بطون عدنان والتي تسكن في منطقة ودان غرب المدينة المنورة.

٢ - "السيرة النبوية" لابن هشام: ١٥٦/٢.

٣ - "السيرة النبوية" لابن هشام: ١٤٣/٢.

٤ - "الطبقات الكبرى" لابن سعد: ٢٧٢/١.

٥ - "السيرة النبوية" لابن هشام: ٢٠٥/٣، و"زاد المعاد" لابن القيم: ٢٣٣/٢.

٦ - "السيرة النبوية" لابن هشام: ٢٠٥/٣، و"زاد المعاد" لابن القيم: ٢٣٣/٢.

٧ - "زاد المعاد" لابن القيم: ٢٣٥/٢.

٣- معاهداته صلى الله عليه وسلم مع النصارى:

في آخر سنتين من حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد عدة معاهدات مع النصارى بخران، وقد أرسلوا وفداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكوناً من أربعة عشر رجلاً^١. وقد جاء وفد نصارى بخران في هيئة منظمة، وفي صورة منمقة لدرجة المبالغة، حيث لبسوا ثياب الحرير، وتحلوا بالخواتم الذهبية، وكان من الواضح أن الوفد لم يكن في نيته أن يسلم، وإنما أتى لينظر رسول الله من ناحية، وليبهر المسلمين من ناحية أخرى، فعرض عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ولكنهم رفضوا في بداية الأمر وقالوا: "كنا مسلمين قبلكم" فقال عليه السلام: "يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم للصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن الله ولداً"^٢.

وبعد مناقشة دينية طويلة، صالحهم النبي صلى الله عليه وسلم على الجزية، وكتب لهم كتاباً جاء فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتبه محمد النبي رسول الله لبحران، إذ كان عليهم حكمه في كل ثمرة، وفي كل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق، فأفضل عليهم، وترك ذلك كله على ألفي حلة، في كل رجب ألف حلة، وفي كل صفر ألف حلة، وكل حلة أوقية، ما زادت على الخراج أو نقصت على الأواقي، فبحساب.... ولنبحران وحسبها جوار الله وذمة محمد النبي على أنفسهم، وملتهم، وأرضهم، وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وتبعهم، وأن لا يغيروا مما كانوا عليه، ولا يغير حق من حقوقهم، ولا ملتهم، ولا يغير أسقف من أسقفيتهم، ولا راهب من رهبانيتهم...."^٣.

وفي هذا العهد من التسامح والإنصاف ما فيه، كما طلب وفد بخران من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث معهم رجلاً أميناً لأخذ الجزية، فبعث عليه السلام أبا عبيدة بن الجراح فلما قام، قال عليه السلام: "هذا أمين هذه الأمة"^٤.

كما عاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نصارى جرباء وأدرج، وقد جاء في كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم: "هذا كتاب من محمد النبي لأهل أدرج، إنهم آمنون بأمان الله ومحمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب، وافية طيبة، والله كفيل عليهم بالنصح والإحسان للمسلمين"^٥.

١ - "السيرة النبوية" لابن هشام: ١١٢/٣.

٢ - "عيون الأثر" لابن سيد الناس: ٢٨٩/١.

٣ - "زاد المعاد" لابن القيم: ٤١٩/٢.

٤ - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب رقم: ٦٤: المغازي: باب رقم: ٧٤: قصة أهل بخران، رقم الحديث: ٤٣٨٠: ٧٦٧/٣.

٥ - "الطبقات الكبرى" لابن سعد: ٢٩٠/١.

* المبحث الثالث: علاقة المسلمين بالمستأمنين:

سأتناول الحديث عن هذه العلاقة من خلال ما يلي:

* المطلب الأول: تعريف الأمان لغة واصطلاحاً:

- الأمان في اللغة: ضد الخوف، وهو يعني عدم توقع مكروه في الزمن الآتي، وأصل الأمان طمأنينة النفس وزوال الخوف، والأمن والأمانة والأمان مصادر لفعل [أمن]، ويرد الأمان تارة اسماً للحالة التي يكون عليها الإنسان من الطمأنينة، وتارة لعقد الأمان أو صكه ١.

واستأمنه: طلب منه الأمان، واستأمن إليه: دخل في أمانه، يقال: أمنت الأسير: أعطيته الأمان فأمن، فهو آمن ٢.

ويقال: لك أمان قد أمنتك، وأمن البلد: اطمأن فيه أهله وأمن الشر ومنه: سلم ٣.

وفي "المصباح المنير": أمن زيد الأسد وأمن منه كسلم منه، فهي مماثلة لها وزنا ومعنى ٤ والأمان والإجارة بمعنى واحد ومنه قوله وتعالى: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون} [التوبة: ٦].

والمراد بقوله: {أجره}، أي: فأمنه ٥.

وقال الخليل: الأمانة من الأمن والأمان: إعطاء الأمانة، والأمانة ضد الخيانة ٦.

* الأمان اصطلاحاً:

قد يطلق الأمان مراداً به: مطلق الأمان أي: كل عهد يأمن به من أعطيه كعهد الذمة، والهدنة والأمان، وهذا المدلول ليس مراداً هذا، وإنما المراد: الأمان بمدلوله الاصطلاحي المتبادر عند ذكره في علم السير، والمعروف بوصفه أحد أنواع العهود التي تفيد الأمان.

ولم تتضمن كتب المذاهب الأربعة تعريفاً محدداً يشمل الأمان وحده دون غيره من العهود ١، وفيما يلي بعض من تعريفات العلماء للأمان:

١ - "المفردات" للراغب الأصفهاني، ص: ٢٥. و"لسان العرب" لابن منظور: ١٦٠/١٦ و ١٦١.

٢ - "المصباح المنير" للفيومي: ١/٢٤.

٣ - "مختار الصحاح" للرازي، ص: ٢٦.

٤ - "المصباح المنير" للفيومي: ١/٢٤.

٥ - "تفسير الجلالين" للمحلي والسيوطي، ص: ١٥٠.

٦ - "العين" للخليل، ص: ٤٠. مادة: أمن.

عرفه المالكية بأنه: "رفع استباحة دم الحربي، ورقه، وماله حين قتاله أو العزم عليه، مع استقراره تحت حكم الإسلام مدة ما" ٢.

والأمان عند الحنفية: "نوع من الموادة في التحقيق" ٣.

وعند الشافعية: "عقد يفيد ترك القتل والقتال مع الكفار" ٤.

أما الحنابلة، فقد اقتصر تعريفهم للأمان بأنه: "ضد الخوف" ٥.

وإذا تأملنا في هذه التعريفات، نلاحظ أن الأمان عند الحنفية: نوع من الموادة وهذا تعريف ليس بشامل للأمان، لأن الموادة متعددة الوجوه، فتشمل المعاهدة والذمة والهدنة.

ونفس الشيء عند الشافعية، فتعريفهم غير جامع ولا مانع، لأن قولهم: عقد يفيد ترك القتل والقتال لا يخص عقد الأمان وحده، بل يدخل فيه أيضا عقد الذمة والهدنة، ونفس الأمر يقال على تعريف الحنابلة.

ولعل تعريف المالكية هو الأقرب إلى معنى الأمان لشموله، حيث ورد بمعنى: أن عقد الأمان هو: "رفع استباحة دم الحربي، ورقه، وماله، حين قتاله أو العزم عليه، مع استقراره تحت حكم الإسلام مدة محددة".

وقد اشتهر هذا التعريف بين الباحثين ومعناه: رفع: مصدر مناسب للأمان، ومعنى: استباحة دم الحربي: احتزوا به من رفع استباحة دم غيره كالغفو عن القاتل.

وقولهم: حين قتاله: احتزوا به عن الصلح والمهادنة ٦.

وهذا الأمان: أمان مؤقت بخلاف أمان عقد الذمة، فهو أمان مؤبد، ومتى العقد الأمان فقدتم وأمكن تنفيذه في الحال، وللحربي المستأمن أن يعمل بمقتضاه، فيدخل دار الإسلام آمنا، ولا يجوز له التعرض بسوء، ويجب على المسلمين رعاية هذا الأمان، ومقتضاه مادام قائما ٧.

١ - الناظر فيما أورده العلماء من تعريفات للأمان، يجد منها: ما اقتصر على المدلول اللغوي لكلمة الأمان [مثلا: معونة أولي النهى للفتوح: ٤/٤٤٤] و"كشف القناع للبهوتي: ٣/١٠٤] ومنها ما اقتصر على تعريف الأمان بذكر صورته [مثلا: "بدائع الصنائع" للكاساني: ٩/٤٣١٨ وشرح حدود ابن عرفة: ١/٢٢٤] ومنها ما اقتصر على تعريفه بذكر بعض أنواعه [مثلا: الحاوي الكبير للماوردي: ١٨/٢٢٤].

٢ - "مواهب الجليل لشرح مختصر خليل" للحطاب: ٣/٣٦٠.

٣ - "فتح القدير" لابن الهمام: ٤/٢٩٨.

٤ - "مغني المحتاج" للشرييني: ٤/٢٣٦.

٥ - "كشف القناع" للبهوتي: ٣/١٠٤.

٦ - "حاشية الشرح الصغير على أقرب المسالك" للصاوي: ٢/٢٨٣.

٧ - "منح الجليل شرح مختصر خليل" لعليش: ١/٧٣٠.

المطلب الثاني: مشروعية عقد الأمان وأنواعه وأقسام المستأمنين.

تأكدت مشروعية الأمان بالكتاب والسنة والإجماع، ودليله من القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾ [التوبة: ٦] ومعنى الآية: إن جاء أحد من المشركين طالبا الأمان والحماية لكي يسمع كلام الله، ويعلم منه حقيقة الإسلام، فإن هذه فرصة للتبليغ والاستماع، فيجب أن يجار ويؤمن، فإن اهتدى به وآمن عن بصيرة واقتناع فذاك، وإلا ينبغي أن يبلغ المكان الذي يأمن فيه" ١.

إن الله عز وجل رتب قبول أمان من استأمن بحرف الفاء [فأجره] في محل الجزاء وهو يفيد الأمر، وأدنى مراتب الأمر الجواز ٢. فيدل ذلك على جواز الأمان إذا طلبه الكافر.

أما الدليل من السنة، ما رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل" ٣.

ووجه الدلالة: ورود كلمة [ذمة] هنا بمعنى: العهد والأمان والحرمة والحق والضمان ٤.

فيفيد النص بأن إعطاء الأمان حق لجميع المسلمين، فيعطيه أي شخص مسلم لأي إنسان، ويحرم قتلة بعد ذلك، وأنه ينبغي على الجميع احترام الأمان الذي يصدر عن أي منهم، وهذا يعني مشروعية الأمان في كل الأحوال ما لم يكف في ذلك ضرر على المسلمين.

وقال الصنعاني معقبا على كلمة: "أدناهم": "والأحاديث الدالة على صحة أمان الكافر من كل مسلم، ذكر وأنثى، حر أم عبد، مأذون أم غير مأذون لقوله "أدناهم" فإنه شامل لكل وضع" ٥.

ولقد طبق عليه السلام الأمان خير تطبيق، وجعله واقعا عمليا، ثم سار الصحابة من بعده على نهجه صلى الله عليه وسلم، يوصي بعضهم بعضا بحفظ الأمان والجوار، وبذلك انعقد إجماع الصحابة والعلماء على جواز ومشروعية عقد الأمان في الإسلام ١.

١ - "تفسير المنار" لمحمد رشيد رضا: ١٠/١٧٧.

٢ - "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي: ٨/٧٧.

٣ - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب رقم ٥٨: الجزية والموادعة: باب رقم: ٧٧: إثم من عاهد ثم غدر، رقم الحديث: ٣١٧٦: ٥٦٥/٢ و ٥٦٦.

٤ - "الفائق في غريب الحديث" للزمخشري: ٢/١٥٠.

٥ - "سبل السلام" للصنعاني: ١/٦.

وينقسم الأمان إلى قسمين باعتبار مصدره:

- ١- أمان الإمام: يصح أمان الإمام لجميع الكفار وآحادهم، لأنه مقدم للنظر والمصلحة، نائب عن الجميع في جلب المنافع ودفع المضار، وهذا ما لا خلاف فيه بين الفقهاء^٢.
- ٢- أمان آحاد المسلمين: يرى جمهور الفقهاء أن أمان آحاد المسلمين يصح لعدد محصور، كاهل قرية صغيرة أو حض صغير، أما تأمين العدد الذي لا ينحصر فهو من اختصاص الإمام^٣.
- وذهب الحنفية إلى أن الأمان يصح من الواحد، سواء أأمن جماعة كثيرة أم قليلة، أم أهل مصر أم قرية، فليس حينئذ لأحد من المسلمين قتالهم^٤.
- وحتى يكون الأمان صحيحا وملزما، يجب أن يصدر عن دراية تامة ببواطن الأمور، وأن يتناسب وحالة الأمن من قوة وضعف، وسلم وحرب، فالسلطة القائمة في الدولة لها ولاية عامة على كافة شؤون المواطنين، ولها حنف الرقابة على ما يصدر منهم من تصرفات قد تتنافى مع المصالح العامة للمسلمين، "وعليه فغن الأمان لا يلزم الوفاء به إلا إذا كان موافقا لمقتضى النظر الشرعي لجميع الرعية من جلب المصالح ودفع المضار"^٥. أما إذا أدى إلى تعدي أحد على اختصاص الإمام فيما يتعلق بتأمين إقليم أو أهل حضى، مما يعين الإشراف عليه أو فتحه، فإن الإمام يكون مخيرا بين إمضاء الأمان وردده^٦.
- أما باعتبار المستفيد منه أي المستأمن: الطالب للأمان فهو: من يدخل دار غيره بأمان مسلما كان أو حربيا، وعلى غير نية الإقامة الدائمة فيها، بل يقيم بها مدة معلومة بعقد يسمى عقد الأمان، وإقامته تكون محدودة قابلة للتجديد، فغن أخذت إقامته صفة الدوام تحول إلى ذمي^٧.

١ - انظر: "مراتب الإجماع" لابن حزم، ص: ١٤١ و ١٤٢.

٢ - "شرح الخرشي على مختصر خليل" للخرشي: ١٢٣/٣.

٣ - نفس المصدر: ١٢٣/٣.

٤ - "بدائع الصنائع" للكاساني: ٤٣٢٠/٩.

٥ - "أحكام القرآن" لابن العربي: ٩٠٣/٢.

٦ - "شرح الخرشي على مختصر خليل" للخرشي: ١٢٢/٣.

٧ - "العلاقات الدولية في الإسلام" للشيخ أبو زهرة، ص: ٦٨.

والمستأمن له أربعة أحوال:

- ١- فإما إن يكون رسولا: فبمجرد كونه رسولا يكون آمنا إذا ثبتت رسالته بعلامة كأن يخرج كتابا من حاكم الدولة التي ينتمي إليها، فإذا أخرج ذلك فالظاهر أنه صادق ١.
- ٢- وإما أن يكون تاجرا: وهو ذلك الحربي الذي قدم إلى دار الإسلام لقصد التجارة، ومعه ما يدل على صفته التجارية ٢.
- ٣- وإما أن يكون مستنجرا لسماع كلام الله، فيجب أن يعطي الأمان للوقوف على شرائع الإسلام وبيان محاسنه، فإن شاء دخل في الإسلام، وإن شاء رجع إلى بلاده آمنا ٣.
- ٤- وإما أن يكون طالبا لحاجة من زيارة أو سياحة أو نحو ذلك من الأسباب، فمتى طلب هذا من الإمام أو نائبه أمانا له الأمان مادام مترددا على دار الإسلام، وإن أحب للحاق بمأمنه، لحق به، ولا يتعرض له أحد قبل وصوله إليه، فإذا وصل مأمنه عاد حربيا كما كان ٤.

* المطلب الثالث: نماذج تطبيقية لعقد الأمان مع غير المسلمين في السيرة النبوية.

يشبه نظام الأمان في الإسلام - إلى حد ما- ما كان معروفا عند العرب في الجاهلية من عرف "الإجارة والجوار" حيث كان المحير يحمي المستجير، منعا لسفك الدماء، وكان ذلك مجال فخر واعتزاز العرب قبل الإسلام. وعندما أشرق نور الإسلام، تأصلت هذه العادة في نظامه الاجتماعي، تمشيا مع شغف الإسلام بالسلم والمسالمة، ومنح الأمان والحماية لمن يرغب دخول داره من غير المسلمين.

ولما كانت طبيعة الحياة أن يختلط الناس بعضهم ببعض، وأن ينتقلوا من مكان إلى آخر لتحقيق المصالح واكتساب المعاش، وحيث أن الإسلام لا يعارض طبيعة الحياة ولا يفرض على أتباعه العيش في عزلة عن غيرهم من شعوب العالم، فإنه يقر بطبيعة الحال ضرورة إقامة علاقات سلمية مع مختلف البلدان، سواء أكان ذلك في حالة السلم أم في حالة الحرب ٥.

وبذلك أقر الإسلام نظام الأمان كأسلوب لحماية الأجنبي خارج بلده، إذا أراد الدخول إلى دار الإسلام لحاجة أو غرض معين أو أداء رسالة أو سماع آيات الله.

١ - "المغني" لابن قدامة: ٣٤٧/٩.

٢ - "أحكام أهل الذمة" لابن القيم الجوزية: ٤٤/٢.

٣ - "أحكام أهل الذمة" لابن القيم الجوزية: ٤٤/٢.

٤ - نفس المصدر: ٤٤/٢.

٥ - "آثار الحرب" للزحيلي، ص: ٢٢٠.

وقد شهدت السيرة النبوية عقد الأمان واقعا عمليا، استفاد منه غير المسلمين لدخول دار الإسلام ومن ذلك: ما حدث عند فتح مكة عندما قال الرسول عليه السلام: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن" ١.

وما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم من توفير الأمان لأهل مكة، حين قال لهم يوم الفتح: "ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء" ٢.

فضرب بذلك عليه السلام المثل الأعلى في العفو عند المقدرة، وكيف أنه صلى الله عليه وسلم بعد دخوله مكة منتصرا لم يتعرض لأحد من أهلها في النفس أو المال ثم نادى مناديه: "ألا لا يجهز على جريح، ولا يتبعن مدبر، ولا يقتلن أسير" ٣. وهذا الأمان أمان جماعي في الإسلام.

أما عن الأمان الفردي فقد تمثل ذلك عندما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمان لصفوان بن أمية ٤. فعندما خرج هذا الأخير من مكة يريد جدة ليركب منها إلى اليمن، قال عمير بن وهب: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه، وقد خرج هاربا منك ليقتل في البحر، فأمنه صلى الله عليه وسلم، فقال عليه السلام: "هو آمن"، قال: يا رسول الله فأعطني آية يعرف بها أمانك، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمامته التي دخل بها مكة... فجاء صفوان وعمير إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال صفوان: "إن هذا يزعم أنك قد أمتني، قال: صدق: فاجعني فيه بالخيار شهرين، قال عليه السلام: "أنت بالخيار فيه أربعة أشهر" ٥.

كما أجاز الرسول صلى الله عليه وسلم أمان أم هانئ لرجلين من أحمائها [أقارب زوجها]، تقول رضي الله عنها: "لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة فر إلى رجلان من أحمائي، من بني مخزوم، فدخل عليّ علي بن أبي طالب، قال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة إن فيها لآثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إلي، فقال: مرحبا وأهلا يا أم هانئ، ما جاء بك؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي فقال: "قد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنت، فلا يقتلنهما" ٦.

١ - أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب رقم ٣٢: الجهاد والسير، باب رقم: ٣١: فتح مكة: ٦٨٧/٣، رقم الحديث: ٤٦٤٢.

٢ - أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: كتاب السير: باب: فتح مكة: ١١٨/٩.

٣ - "الأموال" أبو عبيد، ص: ١١٧.

٤ - أبو وهب صفوان بن أمية بن خلف بن وهب الجمحي القرشي المكي، كان من أشرف قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم بعد الفتح وشهد مع المسلمين حنيناً واليرموك، مات بمكة سنة ٤١هـ، انظر: "الطبقات الكبرى" لابن سعد: ٤٤٩/٥.

٥ - "السيرة النبوية" لابن هشام: ٣٩/٤ و ٤٠.

٦ - نفس المصدر: ٣٤/٤.

وكذلك أجاز الرسول صلى الله عليه وسلم أمان ابنته زينب لزوجها أبي العاص بن الربيع الذي كان قادمًا بتجارة إلى أهل مكة، فأصابتها إحدى سرايا المسلمين، فأخذوا الأموال، وهرب أبو العاص، فأقبل تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستجار بها، فأجارته، قائلة: "أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع: "... ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل على ابنته فقال: "أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلصن إليك، فإنك لا تحلين له" ١.

وبذلك قبل الرسول عليه السلام والمسلمون معه أمان زينب رضي الله عنها لزوجها أبي العاص، فكان إذا أعطى أحد المسلمين الأمان لأحد وجب على الباقي احترام هذا الأمان والحفاظ على صاحبه دون مس أو اعتداء عليه في نفسه أو ماله أو عرضه.

١ - نفس المصدر: ٢/٢٠١، و"البداية والنهاية" لابن كثير: ٤/٢٩٩ وما بعدها.

* المبحث الرابع : علاقة المسلمين بأهل الحياد:

وسأفصل الحديث عن هذه العلاقة وفق ما يلي:

* المطلب الأول: تعريف الحياد لغة واصطلاحاً.

-تعريف الحياد لغة: ورد الحياد في اللغة بمعنى الميل والعدول عن الشيء، والانحراف عنه يقال: حاد عن الشيء، يجيد حيداً وحيداناً ومحيداً، وحايده محايدة وحياداً أي: مال عنه ١ وقريب منه الاعتزال: فإنه مأخوذ من عزله، يعزله فاعتزل وانعزل وتعزل أي: نحاه جانباً فتنحى، وتعازل القوم أي العزل بعضهم عن بعض ٢.

أما الحياد اصطلاحاً: عرف بتعريفات مختلفة منها أنه: "موقف الدولة التي لا تشترك في حرب قائمة وتحتفظ بعلاقاتها السلمية مع كل الفريقين المتحاربين" ٣.

* المطلب الثاني: مشروعية الحياد وأنواعه.

وينقسم الحياد إلى قسمين: - حياد مؤقت يستغرق مدة زمنية محددة.

وحياد دائم وهو: الاتفاق مع دول أخرى على أن تبقى أبداً بعيدة عن الحروب والصراعات، والفرق بينهما أن الحياد المؤقت مجرد حالة طارئة، أما الدائم فينشأ عن اتفاق مع الدول الأخرى ٤.

وأهل الحياد هم من جملة الحربيين، لأنه ليس بينهم وبين المسلمين عهد، ولكن تقتضي مصلحة الإسلام والمسلمين في زمان ومكان ما، هذا النوع من الحياد المؤقت، فيباح لجلب النفع أو دفع الضرر عن المسلمين، أما الحياد الدائم مع أهل الكفر فهو غير جائز خاصة إذا كان من قبل المسلمين، لأن ذلك يمنح الكفار عزة وقوة وتمكيناً في الأرض، بالإضافة إلى ذلك أنه يعطل الجهاد ولا يتفق مع غايته، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، وأن يكون الدين كله لله.

لذلك الحياد الذي نؤصل له هنا هو الحياد المؤقت، وثمة أكثر من دليل عليه:

-استدل بعضهم على جوازهم بقوله تعالى متحدثاً عن المنافقين: {ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولية ولا نصيراً إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا

١ - "تاج العروس" للزبيدي: باب الدال: فصل الحاء: مادة حيد: ٤٧/٨.

٢ - "القاموس المحيط" للفيروزآبادي: باب اللام، فصل العين: ١٥/٤.

٣ - "القانون الدولي العام" لعلي صادق أبو هيف، ص: ٨٧٩.

٤ - نفس المصدر، ص: ٢٠٣.

٥ - انظر: "العلاقات الدولية في الإسلام" لوهبة الزحيلي، ص: ١٨٣ و ١٨٤.

قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم، فإن اعتزلوا لكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سيلا، ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث تقفلوهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا} [النساء: ٨٩، ٩٠، ٩١] قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي: "... ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء ثلاث فرق: إحداها من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد ميثاق فيكون له حكمهم، والثانية: قوم حصرت صدورهم أن يقاتلوا المسلمين أو قومهم فهؤلاء أمر بتركهم أيضا، والثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم بقطع النظر عن احترامكم وهم الذين قال الله عنهم {ستجدون آخرين} ١.

وقال ابن كثير معلقا على الآية: "فالذين يبدو من ظاهر الآيات أن الاعتزال وحده لا يكفي، بل لابد أن يضاف إليه إلقاء السلم وهو الموادة، فيدخل هؤلاء حينئذ في جملة الموادعين" ٢، ومن السنة النبوية: استدل بعض العلماء على جواز الحياد المؤقت بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "دعوا الحبشة ما ودعوكم، وأتركوا الترك ما تركوكم" ٣. فهذا الحديث يفيد بجواز ترك بعض الأقاليم أو الشعوب أو القبائل دون غزو، وهذا يؤدي إلى معنى الحياد المعروف.

* المطلب الثالث: نماذج تطبيقية للعلاقة مع بأهل الحياد في السيرة النبوية.

وقد روى أصحاب السير والمغازي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما غزا غزوة "الأبواء" وادع مخشي بن عمرو الضمري، وكان سيد بني ضمرة في زمانه على ألا يغزو بني ضمرة، ولا يغزوه، ولا أن يكثروا عليه جمعا، ولا يعينوا عليه عدوا، وكتب بينه وبينهم كتابا" ٤.

فهذه الحادثة تفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم وادع بني ضمرة على ترك القتال وشرط عليهم ألا يعينوا عليه عدوا، ومثل ذلك: "ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم وادع هلال بن عويمر الأسلمي على ألا يعينه ولا يعين عليه" ٥.

وقد استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم في معركته ضد الباطل أن يجيد الكثير من الشخصيات والبطون والقبائل من حربهم ضد الإسلام، إما نتيجة المفاوضات أو حسن المعاملة والجوار ومن ذلك ما فعله رسول الله صلى الله

١ - "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للسعدي: ١٢٠/٢.

٢ - "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير: ٥٣٣/١.

٣ - رواه النسائي [سنن النسائي بشرح السيوطي: ٤٣/٦، وأبو داود في سننه: كتاب الملاحم رقم الحديث ٤٣٠٢، كلاهما عن أبي سكينه عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم].

٤ - "زاد المعاد" لابن القيم: ١٤٦/٣.

٥ - "زاد المسير" لابن الجوزي: ١٥٧/٢.

عليه وسلم خلال مفاوضته مع عتبة بن ربيعة زعيم بني أمية، وكيف جلس إليه عليه السلام وهو يستمع إلى عروضه السخيفة، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقاطعه، ولم يشتمز من كلامه، بل أكثر من ذلك فسح له المجال للمتابعة كي يفرغ ما في جعبته ثم يسأله: أوقد فرغت يا أبا الوليد؟ ثم قرأ عليه السلام، عليه من صدر سورة فصلت، فأنصت عتبة، حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم السجدة، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك^١.

صحيح أن عتبة لم يسلم، لكنه هزم نفسياً أمام نضاعة الدعوة وبلاغة القرآن، ومن أجل ذلك جاء يعلن قراره أمام قومه، فبدأ يمدح القرآن مدحا عجبيا وختم كلامه ب: "هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم".

"وانسحب عتبة بن ربيعة من المعركة ضد محمد صلى الله عليه وسلم، وانسحب وراءه أكبر تجمع قبلي بعد بني مخزوم هو: بنو أمية، واستطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجيد عتبة وبني أمية، ويخفف من تكالب الأعداء على دعوة الإسلام"^٢.

* خاتمة:

إننا في أشد الحاجة - اليوم - لمعرفة المنهاج النبوي في تربية الأمة وإقامة الدولة، ومعرفة سنن الله في الشعوب والأمم والدول، وكيف تعامل معها النبي صلى الله عليه وسلم، عندما انطلق بدعوة الله في الأرض، حتى نلتهمس من هديه صلى الله عليه وسلم أنجح الوسائل وأنفعها، وأيسر السبل وأقومها في دعوتنا وعلاقتنا بغيرنا، ونقيم بنيان الإسلام على أسس سليمة ودعائم متينة، مستمدة أصولها وفروعها من كتاب ربنا عز وجل وسيرة نبينا صلى الله عليه وسلم.

إن تأصيل العلاقة مع غير المسلمين من خلال أحداث السيرة النبوية ووقائعها، تعد بحق نبراسا يضيء للمسلمين ظلمات طريقهم، ويدلل أمامهم عقبات وعراقيل شتى، مما يضيق الهوة بينهم وبين غيرهم، ويضفي على العلاقة بينهم روح التسامح والتعايش المشترك، ولا أدعي أنني أتيت بما لم تستطعه الأوائل، فشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كبير، وتوضيح معالم سيرته يحتاج إلى نفس أرق، وفقه أدق، ولا أقول أنني استوفيت الموضوع حقه، ولكنها مساهمة متواضعة في تقديم جانب مشرق من السيرة النبوية العطرة، خاصة ما يتعلق منها بمعاملة غير المسلمين وتحديد طبيعته العلاقة معهم.

١ - انظر القصة كاملة في: "السيرة النبوية" لابن هشام: ١/١٦٩.

٢ - "المنهج الحركي للسيرة النبوية" لمنير محمد الغضبان: ١/١٠٩.

- ومن خلال معاشتي لأحداث السيرة النبوية في كيفية معاملته صلى الله عليه وسلم للآخر غير المسلم أقر ما يلي:
- ١- أن الإسلام دين عالمي لا يخص المسلمين وحدهم، ختم الله به سلسلة الرسائل السماوية السابقة، فجميع الأنبياء ارتضى الله لهم ديناً واحداً وهو الإسلام، ومحمد صلى الله عليه وسلم خاتمهم، لذلك فالعلاقة بين الإسلام وسائر الشرائع السماوية علاقة ترابط وتكامل، لا علاقة انفصال وصراع.
 - ٢- أن الإسلام في أحكامه وتشريعاته قد استوعب كل ما يحتاج إليه المسلمون وغير المسلمين في حياتهم الدينية والدنيوية معاً، ليعيشوا حياة كريمة، جنباً إلى جنب دون صراع أو قتال.
 - ٣- أن الاختلاف بني البشر من حيث العقائد والطباع والرغبات والأفكار... شيء أقره الإسلام من خلال كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا الاختلاف تطلب وضع أسس تنظيمية لمعالجة مشكلة التنوع والاختلاف في المجتمع الإسلامي، فكانت "وثيقة المدينة" أول نص مكتوب بعد القرآن الكريم في التاريخ الإسلامي، يرشح ويعزز قيم التعايش المشترك بين المسلمين وغيرهم.
 - ٤- أن التعامل مع غير المسلمين يحتاج إلى فقه رشيد يحافظ على التوازن والاعتدال في المعاملة لئلا تجنح نحو الشدة والغلظة والجفاء بدون مسوغ، أو أن تميل إلى التساهل وتمييع الأحكام ولذلك قدمت لنا السيرة النبوية المعادلة الصحيحة لعلاقة المسلمين بغيرهم. ومن التوصيات التي يمكن الخروج بها من البحث ما يلي:
- الدعوة إلى إعادة الاعتبار لكثير من نصوص السيرة النبوية، باعتبارها الواقع العملي لأحكام المسلمين، والتي تبنى لعلاقة إيجابية مع الآخر، وتكون مرتكزاً لمجتمع إسلامي مستنير بهدي القرآن والسنة النبوية.
 - الدعوة إلى إعادة النظر في كثير من الاجتهادات الفقهية والفتاوي القديمة، والتي كانت سبباً في تأزم العلاقة بين الطوائف والمذاهب الإسلامية من جانب أو بين المسلمين وغير المسلمين من جانب آخر، آخذين بعين الاعتبار مقاصد الشرع وقاعدة تغير الأحكام بتغير مقتضيات الزمان والمكان وتفعيل أحكام جلب المصالح ودرء المفاسد، وعملاً بقاعدة فتح الذرائع وسدها، ودرء الحدود بالشبهات.
 - الدعوة إلى تأسيس فقه إسلامي يؤصل لعلاقة المسلمين بغيرهم تأصيلاً شرعياً، بعيداً عن الجمود والتسيب، بل يكون وسطاً بينهما يراعي ثوابت النصوص الشرعية ويستلهم مقاصدها في الوقت نفسه ويكون مسيراً لظروف العصر، ومنفتحاً على قضايا المعاصرة.
 - تشكيل منابر فقهية ومقاصدية إسلامية - خاصة في بلاد الغرب - هدفها إبراز سماحة الإسلام في معاملة الآخر، وتقديم صورة مشرقة عن تعاليم وتوجيهات الرحمة المهداة محمد صلى الله عليه وسلم، والدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد كل التيارات والأفكار التي تشوه صورتيهما في مخيلة الإنسان الغربي.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

لائحة المصادر والمراجع

*القرآن وعلومه

- ١- القرآن الكريم برواية ورش، دار المصحف، بيروت لبنان.
- ٢- أحكام القرآن لابن العربي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، طبعة: ١٤٣٣ هـ ٢٠١٢، تحقيق رضا فرج الهمامي.
- ٣- أحكام القرآن للإمام أبي بكر الرازي الجصاص، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٤- الجامع للأحكام القرآن للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٥- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسية للنشر.
- ٦- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، الناشر: محمد أمين ذبح، بيروت، لبنان.
- ٧- تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي، دار الفكر، بيروت. الطبعة الثالثة ١٣٩٤ هـ.
- ٩- تفسير القرآن العظيم لابن كثير، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، طبعة ١٤٣٢ هـ ٢٠١١ م. راجعه ونقحه الشيخ: خالد محمد محرم.
- ١١- تفسير القرآن الحكيم المعروف بتفسير المنار، للعلامة السيد: رشيد رضا، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت.
- ١٣- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق وتصحيح: محمد زهري النجار، المؤسسة السعيدية، الرياض، السعودية.
- ١٤- أسباب النزول لأبي الحسن الواحدي، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م.
- ١٥- تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، دار ابن كثير، تقديم: عبد القادر الأرناؤوط.
- ١٦- زاد المسير في هم التفسير للعلامة أبي الفرج ابن الجوزي، المكتبة الإسلامية، بيروت الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ هـ.
- ١٧- لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م، مكتبة الصفا، القاهرة.

* الحديث وعلومه:

- ١٨- صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله البخاري، دار صادر بيروت.
- ١٩- صحيح مسلم للإمام أبي حسين مسلم، دار صادر بيروت.
- ٢٠- سنن أبي داود السجستاني، دار الفكر، مراجعة وضبط وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد.
- ٢١- سنن البيهقي، الكبرى، مكتبة دار الباز، مكة، ١٩٩٤م تحقيق: محمد عبد القادر عطا.
- ٢٢- المستدرک على الصحيحين لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
- ٢٣- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام المسندي، دار الفكر الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ ١٩٣٠م، بيروت.
- ٢٤- شرح الإمام النووي على صحيح مسلم، دار الفكر بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٩٨هـ.
- ٢٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام الحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، تصحيح عبد العزيز بن باز، نشر رئاسة البحوث العلمية والإفتاء، المملكة العربية السعودية.
- * اللغة والمعاجم:
- ٢٦- لسان العرب للعلامة أبي الفضل جمال الدين بن منظور، صادر، بيروت.
- ٢٧- تاج العروس من جواهر القاموس للعلامة محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق مجموعة من الأساتذة، إصدار وزارة الأعلام الكويتية.
- ٢٨- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للعلامة إسماعيل الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ.
- ٢٩- القاموس المحيط للفيروز أبادي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، تحقيق الدكتور: محمود مسعود أحمد طبعة ٢٠١١هـ/٢٠١١م.
- ٣٠- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لأحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.
- ٣١- التعريفات للجرجاني، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٨م.
- ٣٢- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق: طاهر زاوي، المكتبة الإسلامية.

٣٣- تهذيب اللغة للعلامة أبي منصور بن أحمد الأزهرى، طبعة ١٣٨٤ هـ تحقيق عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة، وبعض أجزائه بتحقيق أحمد البردوني وعلي البحايوي.

٣٤- معجم مقاييس اللغة لأحمد فارس بن زكرياء أبو الحسين، تحقيق عبد السلام هارون دار الفكر، سنة النشر ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.

٣٥- العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي مخزومي، إبراهيم السامرائي.

٣٦- جمهرة اللغة لمحمد بن الحسن بن دريد أبو بكر، تحقيقي رمزي منير بعلبكي.

كتب الفقه:

-الفقه المالكي:

٣٧- أسهل المدارك شرح إرشاد السالك في فقه إمام الأئمة مالك، لأبي بكر حسن الكشناوي، دار الفكر، بيروت.

٣٨- شرح حدود ابن عرفة لابن عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الله الأنصاري، المشهور بالرصاع، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م، تحقيق: محمد أبو الأجفان وزميله، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٣٩- مواهب الجليل لشرح مختصر خليل للعلامة أبي عبد اله محمد بن محمد المعروف بالحطاب، الطبعة الثانية ١٨٩٨ م.

٤٠- المنتقى لشرح مختصر خليل للعلامة أبي الوليد سليمان الباجي، الطبعة الرابعة ١٤٠٤ هـ ت.

٤١- المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب للعلامة أحمد بن يحيى الونشريسي، أخرجه جماعة في العلماء، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٤٠١ هـ.

٤٢- شرح منح الجليل للعلامة محمد عlish، مكتبة النجاح ليبيا.

٤٣- حاشية الخرشبي على مختصر خليل للعلامة محمد الخرشبي المالكي، دار صادر، بيروت.

الفقه الحنفي:

٤٤- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للإمام علاء الدين أبي بكر الكاساني، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ.

٤٥- حاشية ابن عابدين على الدر المختار شرح تنوير الأبصار للعلامة ابن عابدين، دار الفكر، الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ.

- ٤٦- المبسوط لشمس الأئمة السرخسي، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية.
- ٤٧- البحر الرائق شرح كنوز الدقائق لزين الدين بن نجيم الحنفي، الطبعة الثانية، دار الكتاب الإسلامي القاهرة.
- ٤٨- الخراج للقاضي أبي يوسف، الطبعة السادسة ١٣٩٧ هـ نشر قصي محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة، مصر.
- ٤٩- السير الكبير محمد بن الحسن الشيباني (مع شرحه للسرخسي) طبعة ١٩٧١م تحقيق د: صلاح الدين المنجد (ج: ١-٣) وعبد العزيز (ج: ٤-٥) معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية، القاهرة.
- الفقه الحنبلي:
- ٥٠- كشف القناع عن متن الإقناع للعلامة منصور بن يونس البهوتي، عالم الكتب بيروت ١٤٠٣هـ.
- ٥١- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم الطبعة الأولى.
- ٥٢- المغني لابن قدامة، دار الكتاب العربي، ١٣٩٢ هـ.
- الفقه الشافعي:
- ٥٣- الأم للإمام الشافعي، أشرف على طبعه وتصحيحه محمد زهري النجار، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.
- ٥٤- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج للشيخ محمد الخطيب الشربيني، دار الفكر وبأعلاه منهاج الطالبين.
- ٥٥- الوجيز في فقه مذهب الإمام الشافعي للإمام أبي حامد الغزالي، دار المعرفة بيروت ١٣٩٩ هـ.
- * التاريخ والتراجم والسير:
- ٥٦- البداية والنهاية لابن كثير، الطبعة الثانية، مكتبة المعارف بيروت.
- ٥٧- تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر ابن جرير الطبري، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم دار سويدان، بيروت.
- ٥٨- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط الطبعة الرابعة عشر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م مؤسسة الرسالة بيروت.
- ٥٩- السيرة النبوية لابن هشام الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١م مكتبة الصفا القاهرة، تخرّيج وتحقيق وليد بن سلامة، وخالد بن محمد بن عثمان.
- ٦٠- السيرة النبوية لابن إسحاق، الطبعة الثانية ٢٠٠٩م دار الكتب العلمية بيروت.

- ٦١- السيرة النبوية لابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد دار المعرفة بيروت ١٣٩٦هـ.
- ٦٢- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس، دار الفكر، بيروت.
- ٦٣- الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة ١٤٠٣ هـ.
- ٦٤- المغازي للإمام محمد بن عمر الواقدي، تحقيق د: جونس، عالم الكتب، بيروت.
- ٦٥- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام لعبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي، عناية طه عبد الرؤوف سعد، دار المعرفة بيروت.
- ٦٦- السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري، طبعة ١٤١٢ هـ، العلوم واحكم، المدينة المنورة.
- ٦٧- وقفات تربوية مع السيرة النبوية لأحمد فريد، دار طيبة، الرياض الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ٦٨- رحمة للعالمين لسليمان سلمان المنصور فوري، طبعة ١٩٣٠ م حنيف بكديودي.
- ٦٩- المنهج الحركي للسيرة النبوية لمنير الغضبان، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م مكتبة المنار الأردن.
- ٧٠- الوفود في العهد المكي وأثره الإعلامي لعلي الأسطل، دار المنار الأردن الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ٧١- تمهيد سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة طبعة ١٤٠٤م.
- ٧٢- الفصول في سيرة الرسول لابن كثير، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ. تحقيق وتعليق محمد العيد الخطراوي، محيي الدين مستو، مؤسسة علوم القرآن دمشق ومكتبة دار التراث المدينة المنورة.
- ٧٣- غزوات الرسول دروس وعبر وفوائد للصلاحي، أعده للنشر قاسم عبد الله إبراهيم الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- ٧٤- الرسول القائد محمود شيت خطاب، دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة بغداد الطبعة الثانية ١٩٦٠م.
- ٧٥- السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، دار الشروق جدة وطبعة أخرى توزيع دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة الطبعة السابعة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- ٧٦- فقه السيرة النبوية لمحمد سعيد رمضان البوطي، الطبعة العاشرة ١٤١١هـ/١٩٩١م دار الفكر المعاصر بيروت ودار الفكر دمشق سوريا.
- ٧٧- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل دكتور علي محمد الصلاحي، دار المعرفة بيروت، الطبعة السابعة ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- ٧٨- فقه السيرة النبوية للغزالي، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٧٩- سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن لمحمد عزة دروزة، عني بها الأستاذ عبد الله إبراهيم الأنصاري، المؤتمر العالمي للسيرة النبوية، الدوحة قطر ١٤٠٠هـ.

٨٠- خاتم النبيين لمحمد أبو زهرة، دار الفكر بيروت الطبعة الأولى ١٩٧٢م.

٨١- مجموع الوثائق السياسية للعصر النبوي والخلافة الراشدة لمحمد حميد الله، دار النفائس الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٨٢- دراسة في السيرة لعماد الدين خليل، دار النفائس بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

٨٣- إمتاع الإسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع للشيخ أحمد بن علي المقرئ، صححه وشرحه محمود ومحمد شاكر، مطبعة لجن التأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٤١م.

٨٤- الرحيق المختوم لصفي الرحمن المباركفوري، المكتبة الثقافية، بيروت.

٨٥- فقه السيرة النبوية لمنير الغضبان، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث مكة المكرمة.

٨٦- السيرة النبوية دروس وعبر لمصطفى السباعي، المكتب الإسلامي بيروت لبنان الطبعة التاسعة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٨٧- طبقات ابن سعد الكبرى، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

٨٨- مقدمة ابن خلدون، دار الرائد العربي بيروت، الطبعة الخامسة ١٤٠٢هـ.

* كتب السياسة الشرعية:

٨٩- آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة للدكتور وهبة الزحيلي، المكتبة الحديثة.

٩٠- أحكام أهل الذمة لابن القيم الجوزية، تحقيق صبحي الصالح، دار اعلم للملايين، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

٩١- أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام للدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية، ١٣٩٦هـ.

٩٢- السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيباني، إملاء محمد السرخسي، تحقيق صلاح الدين المنجد وطبعة أخرى من إصدار معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، مصر.

٩٣- العلاقات الدولية في الإسلام للشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

* فقه عام:

٩٤- المحلى للإمام أبي محمد ابن حزم، وصححه زيدان أبو المكارم، نشر مكتبة الجمهورية العربية ١٣٨٧هـ.

٩٥- مراتب الإجماع للإمام أبي محمد بن حزم، ومعه نقد مراتب الإجماع لابن تيمية، دار الكتب العلمية بيروت.
* كتب الأصول:

٩٦- الفروق لإمام القرافي، دار المعرفة بيروت.

٩٧- قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعلامة عز الدين ابن عبد السلام، دار الكتب العلمية بيروت.
* مراجع عامة:

٩٨- ضوابط المصلحة لمحمد سعيد رمضان البوطي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ.

٩٩- أحكام المعاهدات في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة لإسماعيل كاظم العيساوي، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ دار عمار، عمان الأردن.

١٠٠- الإسلام عقيدة وشرعية لمحمود شلتوت الطبعة ١٣، ١٤١٤ هـ دار الشروق القاهرة.

١٠١- أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني للدكتور عثمان جمعة ضميرية الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ دار المعالي، عمان، الأردن.

١٠٢- الوطن والمواطنة في ضوء الأصول العقدية والمقاصد الشرعية ليوسف القرضاوي الطبعة الأولى ٢٠١٠ م دار الشروق القاهرة.

١٠٣- المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية مستشار طارق البشري، دار الشروق القاهرة، طبعة ٢٠٠٤ م.

١٠٤- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين لمصطفى بن حمزة، منشورات المجلة التي يصدرها المجلس العلمي الأعلى، الطبعة الأولى ١٤٣١ هـ/ ٢٠١٠ م.

١٠٥- محمد في التوراة والإنجيل والقرآن لإبراهيم خليل أحمد، الطبعة الثانية، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، ١٩٦٤ م.

١٠٦- الحكمة من الدعوة إلى الله لسعيد القحطاني، رسالة ماجستير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

١٠٧- الدعوة إلى الإسلام س.ت. أنولد، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

١٠٨- نحن والآخرون دراسة فقهية تأصيلية لدكتور علي محيي الدين القره داغي، الكتاب الثالث من سلسلة قضايا الأمة، لجنة التأليف والترجمة بالاتحاد العالمي لعلماء المسلمين.

١٠٩- المسلم مواطننا في أوروبا للمستشار الشيخ فيصل مولوي، الكتاب الثاني من سلسلة قضايا الأمة، لجنة التأليف والترجمة بالاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.